

مصطفى عبد الواحد

طلائع الدراسات العربية للعاطفة

بقلم مصطفى عبد الواحد
ماجستير في الادب والنقد

* * *

متى كتبت اول دراسة عربية في موضوع العاطفة ؟ وعن اي اتجاه صدرت ؟ أهو الاتجاه الادبي أم الفلسفي أم الصوفي ؟ اسئلة تطيف بذهن الباحث حين يستطلع هذا الجانب في تراثنا الادبي ولا يجد في ذلك اجابات قاطعة بالتحديد ، وعليه ان يجتهد ما وسعه الاجتهاد ، ليصل الى ظن يقترب من الحقيقة ويمت الى الصواب .

واول ما يمكن الباحث ان يسجله في هذا الصدد ان اخبار العشق واشعاره قد عرفت طريقها الى اذهان الرواة وصدورهم وبلغت مكانة سامية في المجالس والاندية منذ عصر بعيد يسبق عصر التدوين والدراسة الذي بدأ في العصر العباسي الاول ، اذ كانت قصص العشاق واشعارهم تحتل المكانة الاولى في مجالس السمر وفي اندية الادب ومجامعه ، سواء في ذلك القصص الواقعي والقصص الاسطوري والمصنوع .

فأخبار مجنون ليلى وقيس بن ذريح وعروة بن حزام قد تنوقلت في الامصار والبوادي واشتهرت بين الناس ، واضيف اليها على مدى السنين ما صنع منها قصصا مفجعة ذات وقائع واحداث وروي معها من الشعر ما يجعل لها طابع التأثير مما يسجل ما تحويه من مشاعر وما تصنعه من آلام .

هذا الى اخبار الشعراء المشهورين بالعشق ممن كان لهم وجود واقعي واخبار ثابتة ، مثل جميل بن معمر وكثير وذي الرمة وتوبة بن الحمير والعباس بن الاحنف ، وتلك ايضا نالت من عناية الرواة واهتمامهم ما جعلها تشيع في الانحاء وتعرف طريقها الى مجالس الخلفاء والوزراء ومجامع السمر واندية الادب . لكن رواية هذه الاخبار والاشعار والسمر حولها لا يعتبر من قبيل الدراسة ، بل هو نوع من الاحتفال بها يدل على منزلتها في المجتمع وسدها لحاجة ادبية فيه .

ويمكن القول ان كلمة الدراسة والبحث او السعي وراء التعريف واكتناه الحقيقة والوصول الى الاقسام والانواع وما الى ذلك ، لم يعرف طريقه الى المجتمع العربي الا مع حركة التدوين وبعد ان انتهت مرحلة الترجمة ، وبعد ان عرف العرب قواعد المنطق واصول البحث العلمي ومبادىء الفلسفة اليونانية ، وذلك في العصر العباسي الاول ، وبالتحديد في عصر المأمون وما تلاه ، وقد بدأت مرحلة الترجمة الحقيقية في صدر الدولة العباسية على يدي الخليفة الثاني ابي جعفر المنصور « فكان رحمه الله مع براعته في الفقه مقدما في علم الفلسفة ، وخاصة في علم صناعة النجوم ، كلفا بها وبأهلها (١) » .

وقد اكمل الخليفة العباسي السابع عبد الله بن المأمون بن الرشيد ، ما بداه جده المنصور ، « فاقبل على طلب العلم في مواضعه واستخرجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة ، فداخل ملوك الروم واتحفهم بالهدايا الخطيرة وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة ، فبعثوا اليه بما حضرهم من كتب افلاطون وارسطاليس وابقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة ، فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم باحكام ترجمتها ، فترجمت له على غاية ما امكن ، ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم في تعلمها فنفقت سوق العلم في زمانه وقامت دولة الحكم في عصره (٢) » .

ويمكننا بعد ذلك ان نتصور ان العاطفة قد اصبحت موضع دراسة من ذلك الحين على طريقة الادباء والحكماء ، أي من خلال منظار الادب والفلسفة ، فكانت المادة التي يدرس فيها مادة ادبية هي الاشعار والاخبار الادبية ، وكان المنهج الذي يعالج به منهجا علميا منطقيا يبحث عن الحقيقة وينزع الى التقسيم والتحليل . ولا شك ان البحث بدأ اول ما بدأ في المجالس والمناظرات في محاولة للوصول الى حقيقة العاطفة واستكناه أسرارها ، وتلك هي المرحلة الطبيعية لبداية البحث في أي علم او فن ، ان يولد في صورة مناقشات وخواطر وبأسلوب المناظرة والجدل . ولدينا على ذلك دليلان يصوران كيف بدأ البحث في مجالس الخلفاء واندية الادباء في فهم حقيقة العشق

ومحاولة تعريفه على طريقة المنطق ليتميز ويتضح :

اولهما : ما رواه السراج في كتابه « مصارع العشاق » ان المأمون سأل يحيى بن اكثم في مجلسه عن العشق فقال يحيى : « هو سوانح تسنح للمرء فيهتم بها قلبه وتؤثرها نفسه » . وكان في المجلس ثمامة بن اشرس فقال ليحيى : اسكت يا يحيى انما عليك ان تجيب في مسألة طلاق او في محرم صاد ظبيا او قتل نملة ! فأما هذه فمسائلنا نحن .

فقال له المأمون : قل يا ثمامة ما العشق ؟ فقال : « العشق جليس ممتع وأليف مؤنس وصاحب ملك مسالكه لطيفة ومذاهبه غامضة واحكامه جائزة ، ملك الابدان وارواحها والقلوب وخواطرها والعيون ونواظرها والعقول وآرائها ، واعطى عنان طاعتها وقود تصرفها ، توارى عن الابصار مدخله وعمى في القلوب مسلكه » .

فقال له المأمون : احسنت والله يا ثمامة ، وامر له بألف دينار (٣) .

وهذا الشاهد ذو دلالة على نشأة البحث في موضوع العشق وتناوله في الفكر الاسلامي ، حيث يصور لنا انه الى عهد المأمون لم يكن هناك تعريف قاطع ولا اتفاق على تحديد معنى هذه العاطفة . فيحيى ابن اكثم الفقيه يحكم على تلك العاطفة حكما موجزا لا يلتفت فيه الى قيم جمالية ، بل يلحق العشق بالوساوس والاوهام ويبتعد عن تعريف الحقيقة ، فلا يرتضي ثمامة بن اشرس هذا التعريف ، وقد كان ثمامة من متكلمي المعتزلة وقد درس الفلسفة وجرى على طريقة الحكماء ، ويرى ان هذا الموضوع ليس من مسائل الفقهاء بل من مسائل الادباء والحكماء ، فيعرف العشق عن طريق وصف مظاهره واستعراض احواله وتحليل اسبابه ، ويرجع به الى اسرار النفوس وتشاكلها وما يصدر عنها من شعور وانبعاث ، وقد رضي المأمون عن هذا التعريف واجازه عليه .

والشاهد الثاني يرويه لنا المسعودي في مروج الذهب (٤) ، عن مجلس يحيى بن خالد البرمكي ، وهو من وزراء الرشيد ، وفي هذا المجلس اجتمع ثلاثة عشر رجلا يمثلون جوانب الفكر الاسلامي في ذلك الحين ، ففيهم المتكلم والفيلسوف والاديب والفقيه والموبذ ـ الذي يصور الفكر الفارسي ـ وهؤلاء الثلاثة عشر رجلا كما سماهم المسعودي في روايته هم :

١ ـ علي بن الهيثم ـ وكان من متكلمي الشيعة الامامية .

٢ ـ ابو مالك الحضرمي ، وهو من الخوارج الشراة .

٣ ـ محمد بن الهذيل العلاف ، وكان شيخ معتزلة البصرة .

٤ ـ هشام بن الحكم الكوفي ، شيخ الامامية في وقته .

٥ ـ ابراهيم بن سيار النظام ، وهو من كبار المعتزلة .

٦ ـ علي بن منصور ، من الشيعة الامامية ، وهو صاحب هشام بن الحكم .

٧ ـ معتمر بن سليمان ، من المعتزلة .

٨ ـ بشر بن المعتمر ، وهو شيخ المعتزلة البغداديين .

٩ ـ ثمامة بن اشرس ، من المعتزلة .

١٠ ـ السكالي ، من الامامية .

١١ ـ الصباح بن الوليد ، من المرجئة .

١٢ ـ ابراهيم بن مالك ، متفقه البصريين ، وكان جدلا لا يعرف له مذهب .

١٣ ـ الموبذ ، قاضي المجوس .

ويرى المستشرق جوستاف فون جرنباوم ان اجتماع هؤلاء معا كاد ان يكون ضربا من الاساطير . ولكني لا أرى في اجتماعهم في مجلس يحيى البرمكي غرابة ، فالعصر العباسي الاول كان عصر احتكاك الآراء وتجاذب الثقافات ، وكان يموج بالاتجاهات الدينية والادبية والفلسفية ، وكان أصحاب كل اتجاه حريصين على تحديد مواقفهم تجاه الحقائق واظهار براعتهم في معالجة القضايا التي يشتغل بها الادباء والمفكرون . وفي هذا المجلس قدم هؤلاء الفقهاء والعلماء تعريفات للعشق وملاحظات تدور حول ما اهتدى اليه الفكر العربي بعد التأمل في حقيقة هذه العاطفة وما يحكمها من قوانين .

فمن حقيقة العشق يقول ثمامة بن الاشرس : « وينبعث من تجانس الارواح نور ساطع تهتز لاشراقه طبائع الحياة ، فيصير من ذلك اللمح نور خاص لاصق بالنفس متصل بجوهريتها يسمى عشقا » .

ويقول الموبذ : « العشق نار تتأرجج في تامور القلوب » .

ويقول معتمر بن سليمان : « العشق نتيجة المشاكلة وغرس المشابة » .

ويقول ابو مالك الحضرمي : « الحب اخفى واحر من الجمر » .

وفي بيان سببه يقول علي بن الهيثم : « ولا يكون الا بازدواج النفسين وامتزاج الشكلين ، وهو دليل على تمازج الروحين » .

ويقول هشام بن الحكم : « ولا يكون الا من اعتدال في الصورة وتكافؤ في الطريقة وملاءمة في الهمة » .

ويقول السكال : « وليد المسامحة وعقيب المناسبة وشاهد على رحم التجانس » .

اما ابراهيم بن سيار النظام فيقول بأن الحب سحر ، بينما يرى علي بن الهيثم انه غير محدود .

وفي احكام العشق وخصائصه يرى هشام بن الحكم ان الحب يعقد اللسان الفصيح ، وان المحب يصبح عبدا

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٣٥٤ . (٢) طبقات الحكماء لابن أبي أصيبعة . (٣) مصارع العشاق ص ٣ . (٤) مروج الذهب طبعة باريس ٣٦٨/٦ . (٥) نشرت في مجموعة رسائل الجاحظ في القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ مطبعة التقدم ص ١٦٠ ـ ١٧٠ ، وعلى هامش الكامل سنة ١٣٢٣ وفي رسائل السندوبي . (٦) رسائل الجاحظ ١٦١ . (٧) ص ١٦٢ . (٨) ص ١٦٣ . (٩) رسائل الجاحظ ص ١٦٦ (١٠) انظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٧٢ . (١١) الزهرة ص ٤ .

مملوكا ويخضع لمحبوبه .

ويرى ابراهيم بن سيار النظام ان المحب يعاني اللوعة والارق ، صومه البلوى وافطاره الشكوى ، بينما يرى معتمر بن سليمان ان المحب يعاني الفراق او خوف الوشاة، وبشر بن المعتمر يرى انه يعاني من الاماني والاطماع.

وقد راى النظام وعلي بن منصور ان الحب لا ينفع فيه علاج . ويرى محمد بن الهذيل العلاف وهشام بن الحكم ان الحب يرتبط بالموت .

وايا كانت قيمة هذه الآراء والمناقشات التي دارت في مجلس يحيى البرمكي بين هؤلاء الرجال الذين يمثلون جوانب الثقافة الاسلامية فان لها دلالتها على اهتمام الفكر الاسلامي بتحديد موقفه من العاطفة ومحاولته استكناه حقيقتها وضبطها بقواعد ومبادىء .

فاذا طوينا صفحة الجدل والنقاش الذي دار حول هذا الموضوع في صدر الدولة العباسية ، فان بحثنا يتجه الى اول كتابة خصصت لموضوع العشق تدرسه وتعالج اسبابه . وهنا لا نجد فيما وصل الينا من تراث غير رسالة الجاحظ في العشق وقد ولد الجاحظ بالبصرة اوائل سنة ١٥٠ هـ وتوفي في شهر المحرم سنة ٢٥٥ هـ. وقد جعل الجاحظ عنوان رسالته هذه : « في العشق والنساء (٥) » .

وهي رسالة موجزة لا تتجاوز عدة صفحات ، يغلب عليها الطابع الانشائي ، ولم يتجاوز فيها الجاحظ ظاهر الملاحظات والوصف التقليدي لاحوال المحبين .

ويمكننا أن نعتبرها اول رسالة عربية افردت موضوع العشق بالحديث ولكننا لا نعتبرها دراسة للعشق العذري بخصائصه وقواعده وآدابه فهي الى وصف الظواهر الواقعة اقرب من استكناه الحقيقة وتحليل الخواطر . فهو يعرف العشق بأنه « اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه حب ، وليس كل حب يسمى عشقا ، وانما العشق اسم للفاضل عن ذلك المقدار ، كما ان السرف اسم لما زاد على المقدار الذي يسمى جورا (٦) » .

ومن ملاحظات الجاحظ الظاهرة : « فتأملنا شأن الدنيا فوجدنا اكبر نعيمها واكمل لذاتها ظفر المحب بحبيبه والعاشق بطليبه (٧) » . ومن ذلك انه لم يجد احدا ممن عشق والديه ولا ولده ولا من عشق مراكبه ونزله يموت كما رأيناهم يموتون من عشق النساء الحرام (٨) .

ويرى الجاحظ ان هناك رجلين من الناس لا يعشقان عشق الاعراب ، احدهما الفقير المدقع ، فان قلبه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ اقصاه ، والملك الضخم الشأن ، لان في الرياسة الكبرى وفي جواز الامر ونفاذ النهي وفي ملك رقاب الامم ما يشغل شطر قوى العقل عن التوغل في الحب والاحتراق في العشق (٩) ثم يختم رسالته بالحديث عن الوصف الحسي للنساء .

وقد كان الجاحظ يتناول في رسائله كل ما يشغل الاذهان ويثير الجدل ، حتى اتهم بانه يمالىء كل اتجاه طلبا للتأثير وذيوع الصيت ، (١٠) وقد كان لديه القدرة على مدح الشيء وذمه ، كما فعل في كتابه المحاسن والاضداد ، ومن هنا فلا نظن انه صدر في رسالته في العشق عن ايمان بحقيقته او انفعال بعاطفة نحوه ، ولكنها معالجة ظاهرية لفظية ليس فيها تحليل ولا تعليل ، وليس فيها استشهاد ادبي يسجل موقف الشعر الاسلامي من هذه العاطفة .

والرسالة الثانية التي يمكن اعتبارها تالية لرسالة الجاحظ في التأليف او مصاحبته لها ، هي رسالة الكندي الفيلسوف الذي توفي اواخر سنة ٢٥٢هـ ، ومن المؤسف ان هذه الرسالة مفقودة لم يصل الينا الا اسمها في عداد كتب الكندي .. ولا شك انها كانت رسالة فلسفية لا أدبية ، تجمع اقاويل الحكماء ونظرات الفلاسفة . ولا نجد بين هاتين الرسالتين وبين كتاب « الزهرة » لمحمد بن داود الظاهري ، كتابا او رسالة اخرى تعالج موضوع العشق حسب ما بلغنا من تراث ، ولكن ابن داود الظاهري يشير في مقدمة كتابه « الزهرة » الى ان هناك من سبقه في التأليف في هذا الموضوع حيث يقول : « وقد رأيت كثيرا ممن ينسب نفسه الى الادب ، ويتحقق بتأليف الكتب قصد في مثل هذا الكتاب الى قصد يبعد به عندي من الصواب ، ابتدأ بذكر من عشق من المتقدمين حتى ارتقى الى ذكر بعض الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، وذكر انهم كانوا من اتباع الهوى على حال لا يجوز ان يضاف مثلها اليهم » (١١) .

ومعنى ذلك ان هناك دراسات سبقت كتاب ابن داود ولم تصل الينا ، لعدم العناية بها لانصراف الناس عنها ، فلم تنل حظا من الانتشار في المجتمع او الذيوع بين الادباء .. ولهذا يمكننا القول ان كتاب « الزهرة » لمحمد بن داود الظاهري يعتبر اول دراسة عربية لموضوع العاطفة بقيت لنا ، وكل ما سبقه لا يرقى الى درجة الدراسة والبحث ، انما هو بالتمهيد والجمع اشبه . وبعد كتاب « الزهرة » نجد كتابا للخرائطي المتوفي سنة ٤٥٦ يجمع احاديث المحبة ، ولكنه يسير على طريقة الاخباريين وليس فيه تحليل ولا تعليل .

ثم يأتي كتاب ابن حزم « طوق الحمامة » وهو متأثر بكتاب « الزهرة » في كثير من الحقائق والمعاني وفي الترتيب الذي يساير الوقوع حالا فحالا . وبعد طوق الحمامة يأتي كتاب « مصارع العشاق » لجعفر بن احمد السراج ، وتلك هي طلائع الدراسات العربية في موضوع العاطفة ، تمثل اتجاهاتها وتصور منازعها ومنابعها ، وهي التي حددت الشكل الادبي الذي التزمه الفكر العربي في معالجته لتلك العاطفة .

القاهرة **مصطفى عبد الواحد**

الظل

مهداة الى م. أ

« كان صديقنا القديم ، الطائر الرفراف ، اذا ما وقع
ظله في الماء . حوم في ظله ليختطفه » .

★

على جفنيك من خبء الليالي — منى عطشى وأطياف حيارى
وشيء كاد يرشفني ارتشافا — وشيء كاد ينهرني انتهارا
تملاني فمتع بي شبابي — وشتتني فسرحني شرارا
حكاية شعلة جذلى تلاشت — على نار وأحيت منك نارا
ترنح بي الزمان فلست أدري — ألحنا كنت ام كنت القرارا

علقت بجفنك العالي خيالا — ، مجرحة جوارحه ، حرارى
يرى الدنيا عطاء ليس تعيا — أنامله ولا يفنى اخضرارا
يرنق في هبوب الشوق آنا — وآنا رف رفته وطارا
سرى مسرى الرواء ، يذوب فيه — حنين النفس ، ينصهر انصهارا

سكبتك سكب نشوان سخي — يظن الناس كلهم سكارى
وأركن ، ان ركنت ، الى التمني — وأشرب ان شربت ولا أجارى
تعتقت القوافي في الدوالي — وشقت صورة الرؤيا الاطارا

على مهل ... تماسكت الدرارى — بخصرك ، جل خصرك ان يدارى
جناح سحابة طويت وحلت — ، وفصلت الرياح لها سوارا
وأنت الضوء كل الضوء حتى — كأن الليل ما لمس النهارا

ازارك ان تحرك أو تلالى — شددت بملء جفني الازارا
عقدت العروة الوثقى واني — عقدت اللمح باللمح اختصارا
ونسج نسيجة حبكتها حبكا — يد الاشراق والنغم العذارى
وهذا الشيب من وعث الليالي — رماد الشمس يعتكر اعتكارا

سألت الورد : أين يقيم طيبا — وكيف يفتق اللون افترارا
فقال الورد : عفوك ، أنت لوني — وأنت الطيب ينتشر انتشارا
صفاء في صفاء ، كل ظل — اذا اكتملت أشعته توارى

الياس خليل زخريا

شفيق المعلوف في شعره المترجم

بقلم وديـع ديب

* * *

كنت يا أخي كلما اطل اديب مغترب أسارع الى لقياه وكأني بعض اهله . فقد بعث الادب المهجري في نفسي ، شوقا يغالبني ويدفع بي الى احترام ادبائه ومؤاخاة شعرائه .

فما ان سمعت بوصول الشاعر المبدع شفيق المعلوف (١) حتى اسرعت الى بيت والده الجليل الصديق الكريم الاديب عيسى المعلوف للسلام عليه وللتعرف به عيانا بعد ان عرفته من خلال رسائله الادبية الرائعة وقصائده المبدعة . وقد كان لقائي به مفصحا عما يجول في خاطرينا من وفاء متبادل . ولقد بادرني بهذا القول « اشكر لك هديتك اللطيفة « كتاب الشعر العربي في المهجر الاميركي » الذي سأقرأه قراءة دقيقة ان شاء الله . ولسوف افيد من ملاحظاتك كما ارجو ان اوفق الى ابداء ملاحظات يمكنك ان تفيد بدورك منها » . فما زادني قوله هذا الا اعجابا واكبارا . ولعل المطلع على كتابي المشار اليه لا يزال يذكرانني تنبأت خلال تحدثي عن الشاعر الخالد المرحوم فوزي المعلوف بمستقبل باهر ينتظر اخاه شفيقا ، الذي قلت فيه بأنه مرشح لدرجة الابداع بين شعراء المهجر الجنوبي . وانا انما قلت هذا استنادا لامرين، اولا فقد لاحظت وانا اتابع دراسة الشعر المهجري ، ان الكثير مما ينظمه شفيق يجيء شعرا مجنحا بالخيال اثيرا في النفس بما ينصهر في بوتقة حرفه من عواطف مشبوبة تدفعه دفع البخار شراعا خفيف الظل في رياح موآتية . والامر الثاني الذي حملني على التفاؤل بمستقبل هذا الشاعر هو انه متواضع والتواضع صفة ملازمة للعبقرية، وطبيعي ان الذكاء والكبرياء لا يجتمعان. ليس شيء ادل على ما اقول ، من قيامه بين الفينة والفينة ، بترجمات أدبية عن الآداب البرازيلية كما تشهد بذلك مجلة العصبة الاندلسية التي تصدر في سان باولو من اعمال البرازيل .

واذا فحديثي في هذه العجالة مقتصر على بعض هذه الترجمات وكم اتمنى لو كنت عالما باللغة البرتغالية التي ينقل عنها المترجم ليصح لي ان اقابل وان احكم .

بيد أن ذلك لا يمنعني من التنويه بهذا الفضل الذي يقوم به شفيق وامثاله من شعراء المهجر ، ففي عمل الترجمة هذه ، فائدة مزدوجة ، الاولى هي أنها تتيح لادبائنا الناشئين ان يطلعوا على معطيات الآداب الغربية . والثانية هي انها تكسب المترجم نفسه بيانا جديدا وتوسع من آفاق خياله .

مع العلم ان الكثير من شعر المعلوف وغيره من كبار شعرائنا في المهجر ، قد ترجم الى معظم اللغات العالمية الحية من امثال ابي ماضي والقروي وفرحات وفوزي المعلوف .

هذا وانك لتحس وانت تقرأ هذه المقاطع المترجمة أن ما تقرأه عربي اللسان والبيان ولولا تنبيه سابق لما شعرت بأن ما تقرأه منقول عن لسان اخر .

لست هنا في موقف يسمح لي بالنقد ، ولست هنا في موقف يسمح لي بالمقابلة بين ترجمة واصل وبين ترجمة وترجمة . الا انني ساعرض لك بعض هذه المقاطع متناسيا ان لها اصلا أجنبيا في حين انك لا تلاحظ فيما سوف تقرأ ان هناك همسا غير عربي . ومرد ذلك عائد في الارجح الى الاجادة في النقل . اقول هذا وانا اعلم ما تعني الترجمة عن الشعر الاجنبي فقد حاولت ان اترجم في يوم من الايام بعض الروائع الشعرية عن اللغة الانكليزية فما افلحت بسوى واحدة هي مقطوعة « بن جونسن » التي يستهلها بقوله :

Drink to me only with thine eyes

هذا اذا صدق ظني وصح قول الناقدين . واذا فالترجمة ليست امرا يسيرا واقل ما تتطلبه منك هو ان تجيد لغتين بالاضافة الى وجود طاقة شعرية تمهد لك سبيل الابداع .

وأمتع ما قرأت من هذه الترجمات تلك التي نقلها الشاعر شفيق عن نجله اسكندر الذي ولد شاعرا كأبيه واعمامه فوزي ورياض ،وهل رأيت تواضعا يداني هذا التواضع في ان يترجم شاعر كبير لشاعر صغير ناشيء ، قد يكون هذا من قبيل التشجيع الذي يريده الوالد لولده ولكن هذا لا يمنع من ان نعد العمل بحد ذاته فضلا ورحابة صدر ، فقد جاء في بعض المراجع التاريخية ان العرب امتنعوا عن الترجمة من الشعر اليوناني لاعتقادهم انهم اهل الفصاحة والبيان وان الشعر لا ينبع في غير ارضهم .

اليك الان على سبيل المثال بعض هذه النماذج ، ومنها هذا المقطع للشاعر اولاغو بيلاك بموضوع « لعنة »

أساي لعمر يمر جزافا	**وحب يموت ولم يولد**
فحبك خادعت نفسي به	**فطال الزمان ولم اسعد**
فلما ضللت طريق طموحي	**وضيعت بين يديك غدي**
لعنتك لعنة من نال منه	**أذاك وان كنت لم تقصدي**
وقد كنت انحت تمثال مجدي	**فحطمته وقطعت يدي**

واليك بيتين بموضوع « الذكريات » نقلا عن الشاعر الفريدو دي اسيس :

(١) **القي هذا الحديث في كلية بيروت للبنات على اثر صدور الكتاب سنة ١٩٥٥ ، ولم ينشر .**

تجربة الناس

من بعد ما جربت بعض الناس   أيقنت ان الصدق في افلاس

من بعد ما عاشرتهم وعرفتهم   لم ألق غير مخادع دساس

وخبرتهم كم واحد في واحد   والكل مثل البعض واتعاسي

أعرضت عنهم خائبا متألما   من زمرة خلقت بلا احساس

وضحكت لا من فرحتي لكنما   من لوعتي وهزئت بالانجاس

أين الصديق وأين فارج كربتي   وملازمي في الهم وهو مؤاسي

لا لم أجده دائما في جانبي   وانكبتي في الصب والجلاس

أين الذين أحبهم وأودهم   هل أصبحوا رمسا من الارماس

أم انهم قد غيروا أطباعهم   وغدوا ككل الناس .. بين الناس

أنا شاعر تصف الجمال يراعتي   وأذبت نور العين في القرطاس

فالشعر عندي متعة علوية   بل انه عرس من الاعراس

من كل قافية أنا أطلقتها   في الشعر نبراسا على نبراس

وأحس بالشيء البديع يهزني   ويثير في كوامن الاحساس

يا ليتني ما كنت يوما شاعرا   يا ليتني ما كنت بالحساس

عندي الصراحة خلقة وطبيعة   والخبث كم منه الصريح يقاسي

ما همني قول الورى وخداعهم   نزهت نفسي عن ذوي الارجاس

وأغض طرفي لا أصانع مثلهم   لا ليس تلك طبائعي ومراسي

حاولت أن انسى مرارة خيبتي   لكنني ما كنت ذاك الناسي

وغدوت أرغب أن أعيش وانطوي   وحدي على نفسي.. ليسلم راسي

زحلة ـ لبنان   رياض معلوف

كاني بالذكريات ازدحمن   على الصدر مختلجات الجناح

حمامات برج توارت وعادت   الى البوح مثخنة بالجراح

وهنا انشودة صغيرة بموضوع « منزل الاباء » للشاعر البرازيلي كاسترو الفيس :

أيا منزل الآباء أصبحت خاليا   وقد كنت في ثوب من الزهو فضفاض

خلوت لكل الناس الا لناظري   وآنست عودي رغم هجري واعراضي

فأطلع لي خاليك اطياف من مضوا   بأسرع من فتحي لجفني واغماضي

وحدث فيك الصمت قلبي مرددا   علي اماني الخوالي واعراضي

تفر لخطوي الذكريات كزمرة   من الطير قد اجفلن من بين انقاض

فتعبر بي لمسا باطراف ريشها   وترتد عني عائدات الى الماضي

ولعل أروع ما تقرأ من هذه الترجمات المقطوعة التالية للشاعر لويس دي فونسكا . ذلك لما في هذه الابيات من تسام روحي :

الا دع يد الآمال تلقي نذورها   على قلبك المجروح مسكا مطيبا

وكن مثل قلب الارض لو لم يفتحوا   به الجرح فوق الجرح ماكان اخصبا

وكن كفضاء الله ان يرشق الورى   حجارتهم لم يبلغوا منه ماربا

لقد كنت ارغب بأن ازيدك من هذه الروائع لولا انني انتظر لك صدور كتاب من هذه الترجمات المختارة بعنوان « على سندان الخليل » بمعنى ان المترجم افرغ تلك المعاني الشعرية المنقولة في قوالب من صنع الخليل بن احمد واضع اوزان الشعر العربي ذلك ما حدثني به صديقي المغترب الشاعر شفيق المعلوف .

لن اطيل الحديث عليك ، وما عساك ان تسمع مني في وقت لا يتجاوز الدقائق القليلة الا انني اود ان الفت نظرك الى خاصية بارزة في شعر صاحب عبقر . هذا الشاعر الذي احيا تراثنا الاسطوري في « عبقره » وعبقريته . وهي خاصية التحليق المصعد بحيث يرتفع الشاعر ويرتفع ليحط اخيرا على قمة عالية ثم لا يلبث ان يشارف منها ذروة ثانية فيطير اليها في عزم امض واندفاع أشد . اليك على سبيل المثال هذه القطعة التالية وهي من وضعه الخاص انقلها اليك عن ديوانه الجديد « لكل زهرة عبير » على ان تكون مسك الختام وهي في موضوع « حاطمة الكأس » حيث يقول :

غفت ورقات الحور والنهر انتشى   وكنا عليه عصبة حول منشد

تخالسني احدى الملاح لحاظها   ويشغلني عنها هتاف المجود

وتشغلني كاس اذا ما رشفتها   تبش فتلهيني عن الامس والغد

فعضت لماها كبرياء وحطمت   بقبضتها كاسي بسخط المعربد

ومدت الي الكف ينزف جرحها   على ما تشظى من حطام مبدد

وقالت تجاهل يا شقي صبابتي   وما شئت امعن في الجهالة وازدد

فمن لا يرى في مقلتي ما بمهجتي   حملت اليه جرح قلبي على يدي

وديع ديب

كل يتحدث عن فاتنة . فاتنة التي تنتقل من زوج الى زوج ومن حب الى حب دون أن تكترث لاحد او لكلام الناس او لما ينجم عن عملها من النتائج . الرجال يتحدثون عن جمالها وعما له من تأثير بالغ في القلوب . والنساء يثرثرن بحكايات مختلفة عن افعالها الغريبة الشاذة .

وجارتاها فدوى وسعاد من هؤلاء المتحدثات . تركتا الاعمال المنزلية ، واهملتا اولادهما الصغار ، وتجاهلتا ما ألقي على عاتقهما من واجب العناية بهم ، واخذتا تحللان شخصية تلك المرأة الطائشة فاتنة .

قالت سعاد لفدوى في عبوس وسخط :

— لست أدري متى تستقر فاتنة وتقنع بزوج واحد تخلص له ولاولادها التي رزقتهم معه . انها كطائر الربيع تنتقل من غصن مورق مزهر الى غصن يماثله ومن حديقة الى اخرى .

(ما ابدع حظها ! ان الشبان متدلهون في حبها . لقد فتنت عقولهم برشاقة قوامها وجمال وجهها وحيوية حركاتها . وهي متكبرة عليهم تدوس بقدمها الصغيرة كرامتهم ، وتتصام عن تأوهاتهم ، وتتعامى عن تضرعات نظراتهم . هنيئا لها حظها !)

وقالت فدوى بلسان طلق :

— انها امرأة لعوب كأنها لا تزال فتاة صغيرة السن وكأنها لم تتزوج وترزق اولادا لست أدري لم لم يقفها والداها عند حدها . الا يستطيعان أن ينصحاها ويرشداها؟ أليس هناك وازع لها من دين او خلق ؟ انها على كل حال دمثة حلوة المعشر تنكت في قولها وتستولي على من يستمع اليها ببراعتها في الحديث وبما يمتاز به صوتها من رنة عذبة اخاذة .

(لن أنسى انها اقرضتني مرارا مبالغ ضخمة من مالها وصبرت علي سنين طوالا حتى قضيت لها ما علي من دين . لا شك انها امرأة كريمة وصديقة وفية . ان مجلسها لا يمل ، وحديثها يلهي الذهن ويرفه عن النفس) .

فزوت سعاد ما بين عينيها ، وقالت بنغمة ثائرة :

— لعنها الله ، ولعن حديثها ونكتها ! لست ادري كيف يطيب للنساء الاستماع الى حديثها ولا كيف يستسغن نكتها . انها ثرثارة تنطق بما يعن في ذهنها وبما يخطر في بالها . ما أغبى الرجال الذين يحومون حولها ويثنون على جمالها الموهوم ! الحق انها مجردة من المفاتن التي يدعون انها تمتاز بها على غيرها من النساء .

(ان عينيها الواسعتين لا مثيل

الحقيقة والمجتمع

بقلم عبد الحميد الانشاصي

لهما ، فان فيهما من التعابير الفاتنة الصامتة ما يذهل عقول الرجال ويثير الحس في قلوب النساء . وعنقها الطويلة الناصعة البياض الملساء البشرة تجمع بين درجة رفيعة من الحسن ودرجة سامية من الوجاهة) .

فابتسمت فدوى ابتسامة مخطئة ، وقالت بنغمة مؤكدة :

— فاتنة ! لا ، لا . انها تملك من آيات الجمال ما يكفي لتوزيعه على اربع نساء دميمات حتى يصرن جميلات . نعم ، انها طائشة وغير

قصة

مخلصة في الحب ولكنها فاتنة كاسمها . ولو لم تكن كذلك لما وقع في هواها ثلاثة رجال فتزوجوها واحدا بعد الاخر ، فضلا عن اولئك الرجال الذين اعجبوا بها وعشقوها ولكنهم فشلوا في اجتذاب قلبها اليهم والتزوج بها .

(ان من جملتهم اخي . لقد تدله في هواها وتمنى لو انه اتخذها زوجة له . وقد فاتحت فاتنة بذلك ، وحاولت ان اقنعها بأنها ان تزوجت اخي عاشت معه في سعادة وهناء . ولكنها اعتذرت عن عدم رغبتها في التزوج به لانها لم تشعر بحب نحوه) .

فأمسكت سعاد خصريها بيديها ، وقالت بنغمة مغتاظة مهاجمة :

— الا تدرين ان البقال سليما ندم على تزوجه بها ؟ لقد اعترف لصديق له انه لم يرتكب في حياته خطأ كذلك الخطأ الذي ارتكبه حينما تزوج فاتنة .

ثم واصلت كلامها هامسة :

— انها خائنة . لقد خانته مع الاستاذ مدحت الذي كان يقيم في دار مجاورة للدار التي كان يقيم فيها البقال سليم مع فاتنة . وهذا هو الذي حفزه على تطليقها والاستراحة من همها . ومن شدة نفوره منها ومن النساء الجميلات تزوج بفتاة دميمة لكيلا تخونه كما خانته فاتنة .

(لقد قالت لي احدى صديقاتي انه ندم على اسراعه بتطليق زوجته اذ كان يحبها على الرغم من خيانتها له ، وانه لم ينفصل عنها الا ليضع حدا لعلاقتها الآثمة ، وليتخلص من تلميح الرجال الى تلك العلاقة بحضوره ، ومما جلبته اليه من عار) .

فقهقهت فدوى حتى اهتزت كتفاها ثم قالت :

— ليس ذلك من المعقول . انها اشاعة . لا تصدقي كل ما يقال عن فاتنة . انني اعرفها كل المعرفة .

فاتنة امرأة طمـوح . ان سليمـا البقال لم يكن منسجما معها فـي الحياة الزوجية ، ولم يفهمها علـى حقيقتها ويقدر ما تمتاز به مـن جاذبية وجمال . فتركتـه وعلقت بشاب مثقف وهو الاستاذ مدحت . اما انها خانت زوجها مـع الاستاذ مدحت فذلك ما لا يصدق .

(لقد سمعت مـن نساء كثيرات ان فاتنـة اعجبت بالاستاذ مدحت وبادلته حبا بحب وهـي لا تـزال زوجة البقال سليـم . وان يكـن ؟ كثيرا ما تتزوج الفتاة رجلا تظـن انها تحبه ، وبعد عدة سنوات يتبين لها انها لا تميل اليـه . والحب شيء ليس فـي استطاعة المراة الحساسة ان تتجاهله فـي سبيل الاحتفاظ بالامانة الزوجيةوالاخلاص لرجل لا تميل اليه . ان كثيرات من النساء ينفصلن عـن ازواجهـن ويتزوجن رجالا اخرين) .

مالت سعاد برأسها الى ناحية ، وقالت وهي تنظر بعينين سبلاوين :

ــ والدكتور بسام زوجها الثالث؟ ما قولك فيه ؟ هل التقته مصادفة ؟ كيف ضحت بالاستـاذ مدحـت وباودلاها منه وتزوجت الدكتـور بساما كما ضحت مـن قبل بالبقال سليم وباولادها منـه وتزوجـت بالاستاذ مدحت ؟ أليست فاتنـة شبيهة بامرأة ساقطة ؟ انها تنتقـل من شاب الى أخر . تحب رجلا بضع سنين ، ثـم تنبذه وتعلق برجـل اخر . تحب ثم تبغض ، وتحب ثـم تبغض . هل هذا كلـه حب ؟انه خداع وغش . وهكذا تفعل النساء الساقطات . طباعهـا كطباعهـن تماما . ولست ادري كيف يقـع الرجال في هواها ويؤثرونها علـى غيرها من النساء وان كن اروع منها جمالا وامتن خلقا .

(ما ابدع حظها ! ومـا احسن طالعها ! انهـا سيئة السلوك تغش وتخدع ومع ذلك يستقبلها الرجال بالحب والتضحية . ان كثيرات من النساء يتمنين ان تكـون حظوظهن كحظها . هذه اعظم نعمة تنعم بهـا امرأة . لقد كنت وانا صغيرة اكثر منها فتنة وحسنا ومع ذلك فـان الرجال لم يقبلوا علي ولم اتزوج الا في سنة متأخرة) ..

فابتسمت فدوى فـي رقـة ، ووضعت يدها على فخذ صديقتها ، والقت عليها نظرة تستمهلها فـي الحكم عـلى فاتنة ، وقالت فـي هدوء :

ــ مسكينة فاتنة ! كـل الناس ينتقدون افعالها وسلوكها . انهـا بريئة مما توصم بـه من الخيانـة والغش والخداع . قلبهـا طيـب وطويتها سليمـة ، ولكنها غيـر مفهومة . ان قلبها الرقيق شديـد الحساسية فهي دائما في قلق وعدم رضى عن نفسها . انها دائما تبحث عن الرجل الذي يلائمها لتتخـذه زوجا . هذا هدفها . انهـا امرأة طموح كما قلت لك وهي لا تطمح الى ان تتزوج رجلا ذا جاه ومال ونفوذ. كلا . ان رجلا من هـذا القبيل لا يرضيها ولا يشبـع رغائب نفسها ، بل الرجل الذي يرضيها هو الذي يفهمها على حقيقتها ويعـرف كيف يداعبها ويتحبب اليها ويجتذبها اليه بكلامه وسلوكه .

(لعل الكشف عـن محاسـن جسمها ، وبث الحركـات الراقصة في مشيتها ، واشبـاع حديثهـا بالصراحة ، والنغمـات الموسيقيات هي التي توهم بعض الرجال والنساء انها شبيهة بامرأة ساقطة . لا شك ان هذا ظلم يوقعونه بهـا . انهـا تحاول بذلك ان تدخل السرور على قلوب الرجال ، وتلقي دروسا مـن الفتنة والجاذبية على غيرها مـن النساء) .

فأطلقت سعاد ضحكـة جافـة ساخرة وقالت :

ــ ومن هي حتى تختار شابـا راقيا زوجا لها بعد ان تنبذ زوجـا سابقا ؟ هل هي واسعة الاطـلاع غزيرة الثقافة ذكية نابغة ؟ من هي ؟ هل هي ملكة الجمال في العالم ؟ انها امرأة على حظ ضئيل مـن الثقافة والاطلاع . لا مذهب لها ولا مميزات . متصنعة فـي حديثها وحركاتهـا ومشيتها ولباسها وجلوسها وفـي كل شيء . كل مـا فيها صناعي ، وكل ما تأتيه صناعي . فما قيمة تلك المراة السخيفة ؟ انها لا تسـاوي في نظري فلسا واحدا . ليس مـن حقها ان تنبذ استـاذ مدرسة او حتى بقالا . ليس مـن المستبعد ان تنبذ غدا الطبيب زوجها الحالـي ، فقد تؤثر عليه رجلا اكثر منه ثروة . ان طموحها هذا لا بـد ان يوردها مورد الهلاك .

(لا شك ان المـرأة بجاذبيتها ، فقد يفضل الرجل امراة متوسطـة الجمال ذات جاذبية لا تملك مـن المواهب شيئا علـى امراة رائعـة الجمال تتمتـع ببعض المواهب ولا جاذبية لها . قد يحدث عضو واحد يمتاز بجاذبية غريبة في وجه امراة او جسمها ــ من التأثير فـي قلوب الرجال ما لا تحدثه اعضاء كثيـرة ذات جمال اخاذ فـي وجه المراة او جسمها . ولا ريب ان فاتنة مـن اولئك النساء اللواتي يمتزن باعضاء قليلة تخلب عقول الرجال بجاذبيتها لا بجمالها . ليس في العالم رجـل يستطيع ان يطيل النظر الى عينيها دون ان يقع في هواها في الحال) .

« اصوات من الخارج : هه ! ها قد اقبلت فاتنة . فاتنة الرجـال وقاهرة النساء . انظر الـى قوامها كيف يتلوى كأنها ترقص علـى الحان خفية . انظر الـى قدميهـا كيف تنقران الارض بكعبي حذائها نقـرا موسيقيا كأنها تعزف باناملها علـى ضلوع البيانو . ــ ما لنا ولها يـا اخي ؟ دعك منها . انهـا فاجرة . انها تبحث عن زوج جديد كعادتها .

ــ انظر يا اسماعيل . ألا ترى ؟ آه! تلك العينان العميقتان الساحرتان . لونهما غريب لا عهد للناس بمثله

ومع ذلك فهو اجمل من جميع الالوان . ان كان للسحر لون فهو لون عينيها . الا تريدين ان تتخذيني زوجا لك ؟ ـ اسكت يا احمد لئلا تسمعك . انك متزوج ولك اولاد . حرام عليك ! ـ لقد انستني زوجتي تلك الفاتنة الساحرة . لا رغبة لي في النظر الى شيء سوى عينيها . آه ! لقد مرت بي وحرمتني التحديق اليهما.

ـ ما هذا الجمال ؟ الا ترى يا سميح ؟ هنيئا لزوجها تلك المرأة ! انها اهل لان يتزوجها طبيب . هما متلائمان . ذاك يعالج الاجسام ، وتلك تعالج النفوس . ـ كل ينظر اليها ـ في اعجاب وذهول . وهي لا تنظر الى احد كأن الناس لا قيمة لهم في نظرها . ـ هذه هي التي عبثت بعقول الرجال . خدعت بقالا واستاذ مدرسة ، واستولت على عقل طبيب واخضعته لارادتها. انك لن تخدعيني كما خدعت اولئك الرجال ، فقد رأيت كثيرات من امثالك فلم يسحرني جمالهن . لا بد ان ينتبه الطبيب لنفسه فيما بعد وينبذك كما نبذت زوجين من قبله .

ـ ما اجمل هذا القوام ! ان الرجال الذين وقعوا في حبك معذورون . اي رجل يراك ولا يخضع لجمالك ؟

ـ هذه المرأة مجرمة . انها لا ترحم زوجها ولا اولادها . لا تكترث الا لنفسها . انها انانية فاجرة . لو كنت زوجك لقتلتك وارحت الناس من شرك » .

« اعترافات فاتنة لصديقة لها : انني لا اطيق ان ارى صديقتي سهير ـ زميلتي في الدراسة وتربي في ملاعب الحي في صغري ـ تصبح زوجة رجل ثري يملك عمارات عديدة واراضي واسعة ، وتروح وتغدو في سيارة خاصة انيقة وتسكن منزلا عصريا رحبا فخما . بينما أظل انا امرأة عادية قانعة بزوجي البقال . لقد فخرت سهير مرة امامي بمنزلها واملاكها وسيارتها وخدمها . حتى ثيابها عدتها من نوع غير ذاك الذي ترتديه النساء الاخريات . ثمنها اغلى ، والخياطة التي فصلتها ارقى ، وطرازها احدث . وكانت نغمة حديثها مشبعة بالترفع والامتياز والوجاهة ، واشاراتها يمازجها أنف وكبرياء . كدت انفجر غيظا من سلوك تلك المرأة وتصرفها . وعجبت كيف ان الزمان رفعها الى درجة من الرفاهة والعز والنعيم ليست لها اهلا . فهي لا تمتاز علي بجمال ولا ذكاء ولا محتد . أثار في الغيرة ان ارى صديقتي وزميلتي توفق في زواجها واظل انا راضية بحظي من هذه الحياة . كانت تنظر الي من برج كبريائها وترفعها كأنني احدى خادماتها او كأنها تعاشرني من حين الى اخر عطفا علي وتنازلا منها .

لذلك صممت ان ابلغ ما بلغته صديقتي من عز وثراء . اعتزمت ان ابذل اقصى ما اقدر عليه من جهد في سبيل ذلك حتى احقق آمالي وافوز ببغيتي . نبذت زوجي البقال . تخلصت من رجل جرتني حرفته العامية الى درجة لا ارضاها من البساطة والقذارة والجهل . طمحت الى زوج يرفعني لايخفضني. وبعد سعي متواصل وجهد شديد تمكنت من العثور على زوجي الاستاذ . انه ارقى من البقال عقلا ويمتاز عليه بما حصله من الوان الثقافة . وهو فضلا عن ذلك يرتدي ثيابا انيقة ونظيفة ويضع على انفه نظارة اطارها من ذهب ويحدثني عن السياسة والادب من شعر وقصص ويصف لي البلاد العربية والاجنبية التي زارها والناس الذين عاشرهم في حياته . وليس كالبقال الذي لم يحدثني عن شيء سوى الارز واسعاره والعملاء الذين لم يفوا بديونهم له والخسائر التي لحقت به في اول عهده بمهنته . وصرت اخرج مع زوجي الاستاذ الى دور السينما بعد ان كنت الزم بيتي ، بينما يقضي البقال اوقات راحته في القهوات ولا يعود الي الا في ساعة متأخرة من الليل . ومع ذلك فان زوجي الاستاذ لم يحقق مطامحي فقد كان على سعة عقله وغزارة ثقافته لا يملك سيارة خاصة ولا يملك منزلا فخما . كنت اقطن معه في منزل مستأجر ، ونستعمل في تنقلاتنا سيارات تاكسي . غير ان توفيقي في التخلص من زوجي البقال والتزوج بالاستاذ شجعني على البحث عن رجل يجمع بين الرقي الذهني وكثرة الاموال . وبعد محاولات فاشلة استطعت اخيرا ان أحقق امنيتي بتزوجي بالدكتور بسام . انه طبيب بارع في الجراحة ووصف الادوية . بلغت شهرته آذان المرضى وغير المرضى ، وقد جمع ثروة طائلة من مزاولة الطب . وله الان منزل فخم مع حديقة غناء واسعة وسيارة خاصة انيقة اركبها انا وهو في تنزهاتنا عند العصر وحينما نذهب الى دور السينما لمشاهدة الافلام الرائعة . وزوجي الطبيب مهذب الذوق يصور حديثه عن عقل واسع وتجربة صادقة في الحياة . وهو يعرف كيف يدخل السرور والمرح على قلبي ويشغلني عما يعكر صفو ذهني من هموم . يقولون ان الطبيب مشغول دائما بالمرضى ليلا ونهارا . ولا يتفرغ للجلوس مع زوجته ومحادثتها وقضاء ساعة هناء معها . ولكن زوجي الطبيب يخلق فرصا كثيرة لقضاء ساعات حلوة معي ، فلا أشعر بملل ولا سأم . وكلما اشتقت اليه اثناء غيابه عني توجهت الى مستوصفه حيث ارى المرضى الذين يحتاجون الى وصفاته الطبية فيسرني ان اراه منهمكا في فحصهم ووصف الادوية لهم . وهكذا حققت طموحي وبلغت درجة من السعادة لا تقل عن الدرجة التي بلغتها صديقتي سهير » .

(اصوات من الداخل : اختي !

أختي ! لا تتكبري علي . ان الحظ هو الذي ساعدك وجعلك تتزوجين ذلك المحامي الشهير كمالا . لقد اصبحت الان امراة ثرية تدلين بثروة زوجك وجاه زوجك وشهرة زوجك . هل نسيت اننا ابنتا أم واحدة ، واننا نشأنا معا واشتركنا في تناول طعام واحد وفي العمل والمبيت في منزل واحد ؟ عجب ! ما الذي جعلك تلقين علي تلك النظرة التي لا تلقيها الا امراة وجيهة على امرأة وضيعة لا شأن لها ؟ انك لم تتزوجي ذلك الرجل الشهير ببراعتك ومميزاتك . ان ابتهاج صديقة امنا هي التي اختارتك زوجة لابن عمها المحامي الشهير . فعلت ذلك ارضاء لامنا . وأنا كما تعلمين اجمل منك واكثر جاذبية ولكنني اصغر منك سنا . فلم تجد امنا بدا من ان تزوجك انت بالمحامي الشهير لانك اكبر مني سنا وهي لا ترضى لك البوار . هذه هي الحقيقة التي لا شك فيها . أؤكد لك ان زوجك كمالا يؤثرني عليك . انه يحبني ويتمنى ان يتخذني زوجة بدلا منك . من نظراته النارية الخبيرة فهمت كل شيء . انه يكاد يلتهمني بعينيه اللامعتين الحركتين . لقد لاحظت ذلك في الليالي التي سهرت بعض ساعاتها في منزلك . انه خبير يستطيع ان يميز في سهولة المراة الفاتنة من المراة العادية . لا شك انه ندم على تزوجه بك . كان ينبغي له ان يتزوجني انا بدلا منك . ولكن الظروف هي التي ساقته الى هذا المصير المؤلم . لقد اعتمد على ذوق ابنة عمه في اختيار فتاة لاتخاذها زوجة له ولم يدر ان ابنة عمه اختارتك ارضاء لامنا صديقتها العزيزة . قد تسألين : لم لا يطلقك ويتزوجني ، وانا اجيبك انه يتردد الان بين تطليقك والتزوج بي وبين الرضى بالحال التي هو عليها . لقد رزق منك اولادا واصبحت معروفة زوجة له ، وتعود مشاركتك في الحياة فهو لا يريد ان يزعج نفسه ويثير من حوله الاشاعات والاقوال ان هو طلقك . وفضلا عن ذلك فقد كنت زوجة بقال . وهو يخشى ان هو تزوجني في ذلك الوقت ان يسخر الناس منه ويقولوا متهامسين فيما بينهم : « انظروا الى ذلك المحامي الشهير كيف سفت نفسه الى اتخاذ امراة بقال زوجة له » . لقد فهمت كل ما كان يدور في خلده . درسته وخبرته . لذلك بذلت اقصى ما اقدر عليه من جهد لكي اقيم له برهانا على انني اسمى من ان اكون زوجة لبقال مجهول . نبذت ذلك البقال وتزوجت استاذا في مدرسة. لا شك ان هذه الخطوة الجريئة الموفقة التي خطوتها لفتت نظر زوجك ، واسترعت انتباهه الي ، وجعلته يقدرني في نفسه وينظر الي نظرة غير تلك التي كان يلقيها علي من قبل . غير انه ما زال مترددا في امر تطليقك. ولكنني لم أيأس اذ سعيت وسعيت حتى وفقت في التزوج بطبيب بارع مشهور . وقد لاحظت اخيرا ان زوجك رفعني في نفسه الى منزلة اسمى من منزلتك ، وازداد غراما بي ، وتشجع بما فعلت على تطليقك واتخاذي زوجة له مهما اعترض سبيله من عقبات . لقد بان لي ذلك في عينيه القلقتين وحركاته العصبية . ايقن ان زوجي الطبيب لم يقع في غرامي الا لان في جاذبية لا تقاوم وهي التي اجتذبته كما اجتذبته هو الي ، وانه كان صادق الشعور حينما وقع في هواي . كلاهما شهيران : زوجي وزوجك . كلاهما ثريان موفقان في عملهما . ولكنني اوثر كمالا المحامي على الدكتور بسام وان كان الناس يحترمون الطبيب اكثر مما يحترمون المحامي . اني أوثر المحامي على الطبيب لانني احبه . نعم احب زوجك كمالا ، انني افكر فيه منذ وقع عليه نظري لاول مرة حينما زرتك في منزلك لاقضي معكما اولى ليالي الساهرة . لا تعاندي ولا تقاومي بل استسلمي . ان قوة الحب تفوق كل القوى . لا شيء يثبت في سبيلها ويتغلب عليها . انني متدلهة في حبه وهو متدله في حبي . من المحال ان تقضي على حب قديم عاش بغذاء من التضحية والاخلاص والجهد والسهر والتفكير. ان حبنا البريء ثمرة قلبينا ، وهو كائن حي يعيش في قلبينا كما يعيش الجنين ثمرة الزوجين في رحم امه . ولكنني لن اتزوج كمالا . سأكتفي بحبه من بعيد لانه زوجك ، وانت اختي ، وانا أخشى كلام الناس . انني اتركه لك ، وبذلك اكون مخلصة لك وله . غير انني اشعر بأني أشقى امرأة في العالم بسبب هذه الغيرة الحمقاء التي تشتعل في صدري) .

عمان عبد الحميد الانشاصي

بطاقة الى لاجئة

وفي زحمة العيد
أهدي اليك ..
سلاما كصبح طواه الحنين
على جانبيه دموع وطين ...
وفي رهبة العيد
أزجي
بطاقات حب كبير ..
ونايا تكسر
وحقدا تفجر ..
على سارق البرتقال
شعاع العيون المضيئه
على ما جنته الخطيئه
لعل الحروف الصغيره
ندى للجراح
سنى للعيون الكبيره

حلب مصطفى أحمد النجار

الى صديق

الى الفنان زكريا كايا الذي
دخل اخيرا القفص الذهبي

•

فـؤاد الخشن

•

الشويفات ـ لبنـــان



لانك عشت شريدا
اليف الصحارى
وحـر الرمال
تنـام
بظل الخيام ..
تجول بكل فلاة
تهدم فيها قلاع الطغاة !

لانك جربت هذي الحياة الشقيه
سبرت شعاب النفوس الخفيه
وعدت بضوء « ديوجين » تحيا
تطوف بشك يريع المزيف
يهوي عليه
بنور يعري خداعا
تلفع في مقلتيه

لانك عشت وحيدا
وكنت عن الاهل
عن دغدغات الحنان بعيدا
لانك يوما فجعت بحب
تغنيت فيه باحلى الاغاني
ولونت منه ضباب الاماني
نراك تهش لبسمه
لطيف يلوح ، لنسمه
وتحسب عند انشراحك ان الوجود
نعيم وفوح ورود
وغيث من الغيب
يهمي عليك
حنانـا
يحبب هذا الوجود اليك
فيطفو الهناء
بريقا يهلل في ناظريك
وتضفر وهج السراب
حبال نجاة تشد عليها يديك !

صديقي
اراك ضحية هذي النفوس الصغيره
بارض تعذب فيها وتشقى النفوس الكبيره
فحطم مثالك واهمس لعقلك
رفقا بقلبك هذا الشقي ،
ليحجب نوره !



الدكتور محمد رجب البيومي

تحليل نفسي لشخصية الحطيئة

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

قارىء تاريخ الحطيئة ـ غالبا ـ لا يشعر ازاءه بعطف قليل أو كثير ، فالشاعر فيما يقال هجاء خبيث اللسان كثير الشر ثلب امه واباه ؛ وذم من أعانوه وناصروه بالعطاء ، واخذ يتربص الدوائر بمن لا تصله هداياه، وكأنها ضريبة مفروضة يجب ان يمنحها الشاعر ليكف شره عن الفادين والرائحين ، وانسان تطرد شمائله على هذا النحو الثالب الناقم ، **لا يقابل بارتياح !**

ونحن حين نرجع الى بواعث هذه النقمة الشريرة في نفسه ، نجد لها من الدافع المؤلم ما يبررها في اكثر الاحيان او على الاقل ما يجعلها امرا متوقعا لا حدثا شاذا ينظر اليه بعين الدهشة والاستغراب ! **فالرجل اولا وقبل** كل شيء شاعر متميز بين اقرانه ، يعرف لنفسه قيمتها العالية في دنيا الشعر ، ويقيس نفسه بزملائه فيرى انه يعلوهم مكانة في مضمار الشاعرية **وقد ثقف نفسه ثقافة** جاهدة فروى اشعار سابقيه ، واخذ يوازن بين كل شاعر وشاعر معددا عوامل التفوق واسباب الضعف ، وكان شديد الاعتداد برايه ، حتى انه في احتضاره الاخير وهو وقت ينصرف فيه الراحل **عن كل امر من امور الحياة كان** يوازن بين الشعراء ، ويفضل زهيرا على غيره من الشعراء كما انه اثنى على النابغة وجعله دون زهير لضراعته ومذلته وطمعه ، ثم قال عن نفسه فيما نقل الاغاني والله لولا الطمع والجشع لكنت أشعر الماضين !!

هذا الشعور الحاد بمكانته الشعرية ونفاذه الادبي ، قد أحاطت به عوامل سيئة من شأنها ان تضائل صيته ، وتهوى به في ملأ يعتمد على الفخر بالاحساب ، ويرى شرف الاصل شارة الوجاهة وآية الخطوة بين العالمين ! فالحطيئة قد فتح عينه على الحياة ليرى نفسه مغموز النسب لا يعرف أباه ، فهو ينسب تارة الى أوس وتارة الى الافقم ، فاذا كان من أوس فقد جاء عن طريق الزنى لأن والده قد تبرأ منه **والحقه بسواه ، وامه امة ذليلة** لا تجد من نفسها الجرأة على الاعتراف بأب صريح للابن مخافة أن يؤذي ذلك شعور ساداتها الذين جروها الى النكبة ومنعوها ان تعترف بما كان !! ثم هي لا تزال في حياة ابنها التعس ، ضارعة تائهة تتزوج بعبد متهم أيضا في سمعته !! لقد نشأ الحطيئة في هذا المحيط ، وآنس من نفسه قدرة على معارضة الفحول في مضمار الشعر ، ولكن الناس لا يتركون بيئته وأهله ونسبه في ميزان تقديره ! فهم يغمزونه اذا وفد عليهم بقصيدة ، وهم يذكرونه بما يزعجه من حقائق حياته وعوامل تكوينه !! وهو حينئذ بين وضعين متضاربين اما أنه يتضرع ويستكين كما يتضرع العبيد الاذلاء ، فيقنع بما يقال عنه دون تطلع وطموح ، واما ان يجابه العاصفة فيكيل بالصاع صاعين ويصبح شعره الهاجي نذير خطر ومصدر ارهاب وتخويف.

لقد جعل يسأل نفسه من أي ناحية ينالني الناس ، ويرونني دونهم وضعا ومكانة ؟ اذا كانوا يعيرونني بأمي وأبي ! ويظنون ذلك مدعاة غيظ وباعث كمد والتياع فساهجو أنا شخصيا أبي وأمي ! وسأسقطهما من حسابي! فكل هجاء يوجه الي من ناحيتهما فلن يكون بعد ذلك مصدر ايلام ! لاني اتبرأ منهما ، واذمهما بأشنع مما يذمون ! وعليهم ان يلتمسوا بابا آخر لمكيدتي ، فلم تعد أمي وأبي مبعث احترام في نفسي اغار عليهما اذا انتقصني بسببهما منتقص ، يعمد الى مغايظتي بما لم تقترف يداي !!

على انه في هجائه أمة ، لم يكن يصدر عن نفس تريد لها المهانة بذكر المثالب الفاضحة وتعداد المساوىء الجارحة، ولو أراد ذلك لوجد من تاريخ حياتها ومرارة تجربته معها ما ييسر له طريق الاقذاع ! وهجاء « قدير مثله لا يعوزه ان يسقط على العنيف **المؤلم مما يقال في أمة متهمة ذات** وضع منكود ! ولكنه من وراء ذلك كله يعرف انه يركب الصعب مضطرا ، وانه يثور على أم تجري دماؤها في عروقه ، وينازعه قلبه الحنين اليها ، والعطف على محنتها التي التبست بمحنته في مجتمع طبقي يعترف بالرؤساء دون الاذناب ! فكان قصارى أمره أن يقول :

تنحي فاجلسي مني بعيدا	**اراح الله منك العالمينا**
أغربالا اذا استودعت سرا	**وكانونا على المتحدثينا**
حياتك ما علمت حياة سوء	**وموتك قد يسر الصالحينا**

هذا موقفه من أسرته ! وذلك تعليل أهاجيه فيها !

فما موقفه من الناس ولماذا اندفع الى مهاجاتهم الحاقدة حتى تعرض للحبس في امرة عمر بن الخطاب ، وحتى كاد الفاروق رضي الله عنه ان يقطع لسانه لولا أنه أعلن التوبة ، فأخذ عليه أوثق العهود وآكد المواثيق ! .

ان خبرة الشاعر الصادقة بنفوس معاشريه أجبرته أن يقف امامهم موقف المجابه العنيد ، فالرجل شائه الخلقة دميم الصورة قصير القامة حتى ليكاد يقرب من الارض ، وهو يلمح اشارات التغامز ولفتات الغمز في وجه من يراه من المتشدقين بجهارة الحسب ووجاهة المظهر ، وهؤلاء هم سادة القوم ، واصحاب العطاء والبذل ، وقد أطلقوا عليه كلمة الحطيئة فكانت نبزا عرف به حتى كاد يضيع معه اسمه الحقيقي جرول وكنيته ابو مليكة ، ثم ان دراسته لهؤلاء الاجواد المساميح لا تجعله يصفهم بالكرم الطيع في سهولته ، فهم يزدرون المغمورين من الشعراء ، وكم طرق ابوابهم خاملو الذكر من مجيدي القول فأطالوا امداحهم ثم ما رجعوا بغير التافه الضئيل عن تجهم وانقباض اذ هم في أكثر امورهم يبتغون مدائح ذوي الجهارة في القريض لتسير قصائدهم في كل حي وماذا عسى يبلغ الحطيئة في بادىء امره ، وهو ذلك الشائه الدميم القصير القميء ذو النسب المدخول والمنبت الحقير !! لقد جرب الحطيئة ان يحسن القول في امداحهم فكان لا يبلغ حاجته الا بذليل الالحاف ، ومقيت التضرع ! فليشنها حربا طاحنة في غير هوادة على هؤلاء الادعياء الذين ينفقون بعض ما يجدون لا عن طبع عريق في حب المآثر والمحامد بل عن هوى مغرض في الدعاية والاعلام ولا شيء أسير من الهجاء في البادية والحاضرة اذا رنت قصائده وطالت قوافيه ، وعند الشاعر البصير علم بنقائص كل حي ومثالب كل سيد ، فلن يعجزه ان يقول قولا يرى الناس في بعضه لوامع الصدق فيجرون اكثره على بابه ويعدون الهجاء سجلا لنقائص مستورة كانت شارات السيادة والوجاهة تخفيها عن الناس حتى لمحها الحطيئة فعرضها على الانظار .

ولقد صدقت فراسة الحطيئة فما كاد يبدأ أهاجيه، حتى انذر السادة بشر مستطير لم يلبث شواظه ان أحرق مآثرهم بلهيبه المتطاير في كل مكان !! ورأوا انفسهم امام داهية دهياء ترمى بالقول فتنداح دائرته حتى تشيع الجزيرة العربية ، ويصبح سمر الناس ! واذ ذاك فقط عرفوا للرجل قدره ، فسارعوا الى استرضائه ، واخذت كل قبيلة تجمع له كرائم المال ليتحول بأهاجيه الى غيرها وتستريح من القيل والقال ، بل العجيب ان الحطيئة كان يقصد السيد الكريم بشعره ــ متنكرا ــ فيزدريه ويجتويه ثم لا يسعفه ببعض ما يريد ، فاذا أعلن عن اسمه ادركه مض الفزع واقبل عليه يسترضيه ويعتذر بجهل شخصيته! فما معنى هذا لدى الشاعر ؟ الا يرى ان سلاحه البتار قد واتاه بما يريد !

روى أبو الفرج عنه أنه قصد ذات مرة عتيبه بن النهاس العجلي فسأله ، فقال له ، ما أنا على عمل فأعطيك من عدده ولا في مالي فضل عن قومي فأجاب الحطيئة لا عليك وانصرف ! فقال بعض قومه : لقد عرضتنا ونفسك للشر ! فرد عتيبه وكيف ؟ قالوا هذا الحطيئة ، وهو لا محالة سيهجونا أخبث هجاء فتعجل الرجل يصيح ردوه ردوه فلما عاد اليه هش له وسأله : لم كتمتنا نفسك كأنك تطلب العلل علينا ! اجلس فلك عندنا ما يسرك ! ثم قال عتيبه لوكيله اذهب معه الى السوق فلا يطلب شيئا الا اشتريته له ، فجعل يعرض عليه الخز ورقيق الثياب فلا يريدها ويومىء الى النادر الثمين فيحرزه وحين رجع الى صاحبه قال له في تذلل : هذا مقام العائذ بك يا أبا مليكة من خيرك وشرك وقد وهبتك ما تريد !

وقد تكرر هذا الموقف من غيره !! فجزم الحطيئة بصحة رأيه ، ومضى يهجو الناس ليعيش !! لا احب ان يفهم احد اني ادافع عن سلامة منحى الشاعر فالهجاء المفرض دون شك أمر مقيت لا ينحدر اليه فنان كريم ! ولكننا هنا نفحص وضع الحطيئة في بيئة تحرشت به حين ازدرت هيئته ، وغمزت نسبه ، وحرمته بعض العطاء !! فهو اذن امام موقفين لا ثالث لهما فاما ان ينزوي على أحزانه يجرع همومه ، ويودع دنيا الشعر ، ويرضى بالمنزل الحقير مما قنع به أمثاله من أبناء العبيد ، حيث قضوا اعمارهم خدما يخفضون الرؤوس ويحنون الرقاب ! وهذا ما تأباه طبيعة رجل شرس فطره الله على الصيال والمقاومة وتحدي العقاب ، واما ان يعلنها ثورة على هؤلاء المترفعين ، فيخشوا بأسه ، ويقبلوا عليه مرغمين ! وقد اختار لنفسه الموقف الاخير ، فحفظ مكانه في الحياة والتاريخ وهو مكان ان وجد من يزدريه ، فقد وجد أيضا من يحلل اسبابه ويفحص دواعيه ثم لا يرجع باللائمة على الشاعر وحده بل على مجتمعه الذي جرفه الى مأزقه الكريه ! !

على أن نفس الحطيئة لم تكن مطبقة على الشر لا تتجه الى غيره ، بل كان لها هواتفها أيضا ، الى الخير وهو ما نجده وراء أخباره وفي طيات أحاديثه ! وموقفه من الزبرقان بن بدر يشير الى ذلك بوضوح ، فقد كان الشاعر يسير بأسرته الكثيرة العدد في سنة مجدبة الى العراق فلقيه الزبرقان في الطريق فسأله عن مقصده فقال الحطيئة وددت ان اصادف بالعراق رجلا يكفيني مؤنة عيالي وأصفيه مدحي ابدا فقد حطمتني هذه السنة، فقال الزبرقان قد أصبته فهل لك فيمن يوسعك لبنا وتمرا ويجاورك أحسن جوار وأكرمه ، فصاح الشاعر هذا وابيك العيش وما كنت ارجو هذا كله فأين محلك ؟ قال اركب هذه الابل واستقبل مطلع الشمس وسل عن الزبرقان حتى تأتي منزلي ، وكتب الى زوجته ان تحسن الى الشاعر حتى يؤوب ! ولكن الزوجة ازدرته حين لمحت شخصه

قبيل الرحيل

الى طفلتي زينب

★

وتكركرين ، كنبـع ساقيـة
أغفى علـى سبحاتها القمـر

يـا أنت ، يـا قيثارة بدمـي
تعيا اللحون ، ويصدح الوتـر

وربيـع ضحكـات ملونـة
هيمانـة بالسحـر تئتـزر

مـن أي نبـع كنت أشربـه
طـل الحنان ، فينتشي المطـر

الفجـر آب . وانـت غنوتـه
وعبيـره . والموعـد النظـر

جنت مـن الرنمات صحوتـه
وتلاحمت أشواقـه الاخـر

والليل فر ... وعنـد قريتنا
يغفو النخيل . ويسعل الزهـر

ومساقـط للنجـم جائعـة
وطعامهـا الالـواح والشجـر

ضجت مـن الانـواء هالتهـا
وازور عنهـا المعبـر العطـر

وتشابكت فـي عرسهـا شعل
وتمزقت عبر المـدى صـور

يـا جنـة الصادين ، وأسفـي
شـع الحنين . وأشرق السفـر

وتماوجت فـي الشرق اشرعتي
ويلزهـا مـن زاده القـدر !

القاهرة

علي الحلي

القميء ومنظره الشائه واجتوت مقامه! فجاء اعداء الزبرقان الى الحطيئة يرجونه ان يفارق جوار الزبرقان اليهم بعدما أهين في حماه! ولو كان الشاعر خالص النفس الى الشر لاهتبل الفرصة وسار معهم ثم بعث بأهاجيـه الى الرجل وزوجته ! ولكن هواتف الخير قد لاحقته فقال للقول ان من شأن النساء التقصير والغفلة ولن أحمل على الرجل ذنب صاحبته! ثم جاهرته الزوجة بالعداء فارتحل، ولم يهج الزبرقان حتى جاءته أهاجي شاعر مغرض اصطنعه ابن بدر بعد عودته فعرض بالحطيئة وفتح أمامه الباب ! فالرجل الذي يتحرج من هجاء انسان لم يسلف له ذنبا ، وقد وجد المكافأة المغرية على ذلك ، فآثر الرفض لا شك أنه يحن الى نوازع الخير ، ولكنه يعتسف الشر في طريق يضطر اليه حين يبحث عن مأكله ومأواه .

لقد ذكروا مـن مثالب الحطيئة ــ انه مع سؤالـه والحافه ــ شحيح نجيل ! وليس بغريب على الشاعـر الملحاح ان يبخل ويشح ، بل ان كرمه هو الغريب حقـا فيبحث عن دواعيه اذا كان، ويخيل الي أن تجربته المريرة هي التي فرضت عليه هذا البخل ، فقد رأى بعينه انـه قاسى المذلة والهوان لفقره وضيق يده !! وهو بعـد ذو أسرة كبيرة بها الزوجة والبنات والاولاد ! ولو انه فقد الخير نهائيا في نفسه لتنكر لاسرته وترك أولاده نهـب الضياع كما تركه أبوه حين تخلى عنه وجحد بنوته ! وكما اتجهت امه الى زوج آخر تقوم على حاجته تاركة ايـاه بمدرجة الضياع ! ولكن شعوره بالابـوة والزوجية كـان أصيلا في نفسه ، وهو بعد من أسباب شحه وبخله ان لم يكن السبب الاول والاخير ! بل انه حين اقام في محبس عمر بن الخطاب لم يتعاظمه الحبس الا لبعده عن اولاده الصغار ! وكأنهم كانوا شغله الشاغل ، في مصبحه وممساه لذلك بكى الفاروق رضي الله عنه حين سمعه يقول :

ماذا تقـول لافراخ بذي مـرخ — زغـب الحواصل لا مـاء ولا شجر
القيـت كاسبهم في قعـر مظلمـة — فاغفـر عليك سلام اللـه يـا عمر

ورجل هذا شعوره الحساس لن نخليه مـن نوازع الخير ! ولن يقول احد ان حب الولد غريزة فطرية لانـه بالنسبة لتجربة الحطيئة بالذات كان امرا مشكوكا فـي اطراده ، ومن يدري لعل من أسباب حبه الزائد لاسرتـه ضياعه المرير في طفولته فقد دفعه الى ان يكون علـى النقيض من ذويه فيرتفع أمام نفسه على الاقل وهذا وحده كثـير !!

الفيوم ــ دار المعلمات

محمد رجب البيومي

من اعلام الفكر والادب في فلسطين

علي نصوح الطاهر - يوسف هيكل

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ - علي نصوح الطاهر

ظل الشعار الذي نادى به الاستاذ الطاهر منذ صدر شبابه قول خليل مطران : « حسب المسلمين فخرا ان يكون لهم كتاب هو معجم البلاغة العربية العالمية على مر العصور ! ») .

ولد « علي نصوح » في يافا بفلسطين عام ١٩٠٦ ونزح مع والديه الى بور سعيد عام ١٩١٢ ومنها الى المنصورة فالقاهرة عام ١٩١٥ وتلقى دروسه الابتدائية في المدارس الاميرية ببور سعيد فالقاهرة والتحق بمدارس التبانة والالهامية والجامعة الاميركية بالقاهرة .

وفي عام ١٩٢٤ عاد الى فلسطين وعين استاذا للغة الانكليزية في المدرسة الصلاحية بنابلس . وعند وصول « بلفور » صاحب الوعد المشؤوم الى فلسطين عام ١٩٢٥ شجع الطاهر طلابه على القيام بتظاهرة صاخبة قادها الى سراي الحكومة بنابلس فبادرت السلطات المسؤولة الى كف يده عن العمل فاضطر الى مبارحة فلسطين الى القاهرة ، وبعد صدور العفو عنه عاد الى الارض الملتهبة واستأنف عمله في المدرسة الصلاحية بنابلس واسس مع نفر من اخوانه اول ناد باسم « نهضة الشبان » ونظم المرحوم ابراهيم طوقان نشيدا لهذا النادي كان مطلعه :

« نهضة الشبان » كل الامل   فاقتدوا قومي بخير الناشئين
« نهضة الشبان » رمز العمل   فهنيئا للشباب العاملين

وفي اعقاب عام ١٩٢٥ الدراسي آحس بان في نية مستر بومن مدير عام معارف فلسطين نقله الى بير السبع فاستقال من عمله وسافر الى مدينة مونبلييه بفرنسا حيث قضى بضعة شهور في تعلم اللغة الفرنسية وتنقل بين تولوز وفرساي ورين طلبا للغة ثم التحق بالمعهد الزراعي في جامعة العلوم بنانسي وتخرج عام ١٩٣٠ ثم انتسب الى جامعة العلوم في باريس « السوربون » للحصول على لقب « مهندس دكتور » والتحق بنفس الوقت بمدرسة الاقتصاد السياسي بباريس واقبل عام ١٩٣٣ على دراسة شجرة الزيتون في فلسطين بشغف ورغبة ملحة .

وفي اول عمله الحكومي بفلسطين عين عام ١٩٣٢ مساعدا لكبير مفتشي البستنة فكبيرا للمفتشين العرب عام ١٩٤٣ ، وفي عام ١٩٤٦ استقال من عمله هذا وتسلم عمله في امارة شرقي الاردن مديرا عاما للزراعة والبيطرة والمعادن فوكيلا لوزارة الزراعة (١٩٥١ - ١٩٦٠) فوزيرا للزراعة والانشاء والتعمير (١٩٦٠) فوزيرا للزراعة (١٩٦٢) فرئيسا لسلطة قناة الغور الشرقية (برتبة وزير) وعضوا في مجلس الاعيان فوزيرا للزراعة فنائبا لرئيس مجلس الاعمار (١٩٦٣) فسفيرا للاردن في طهران (١٩٦٦) وفي صيف عام ١٩٦٧ أحيل على التقاعد .

وخلال وجوده سفيرا في طهران توثقت عرى الصداقة بينه وبين اعلام الادب والدين والفكر الايرانيين ، ولسعة اطلاعه وعكوفه على البحث والتنقيب كانوا يعولون على آرائه بوصفه ثقة من ثقات العلم والفكر والفقه .

من آثاره القلمية : زود الاستاذ الطاهر الخزانة العربية بكتب علمية قيمة عرفنا منها :

(١) انواع العنب الفلسطيني (مترجم عن الانكليزية) طبع عام ١٩٣٣ .

(٢) زراعة المشمش في فلسطين (مترجم عن الانكليزية) طبع عام ١٩٣٤ .

(٣) شجرة الخروب (مترجم عن الانكليزية) طبع عام ١٩٣٤ .

(٤) شجرة الزيتون (استغرق تأليفه ١٤ عاما وجاء في ٦٤٦ صفحة من القطع الكبير ، وتم طبعه في عام ١٩٤٧) .

(٥) مؤتمر الزيتون يشمل حياة شجرة الزيتون باسلوب قصصي .

(٦) حشرة الفوليكسرا طبع عام ١٩٥٨ .

(٧) اصناف المشمش الاردنية طبع عام ١٩٥٨ .

هذا من الناحية العلمية الزراعية ، اما من الناحية الدينية والتاريخية والادبية فقد صنف الاستاذ الطاهر الكتب التالية :

(١) اوائل السور في القرآن الكريم طبع عام ١٩٥٤ و ١٩٦٤ .

(٢) القصص في القرآن الكريم (مخطوط) .

(٣) تاريخ القبائل العربية في الاردن (مخطوط في ٧٠٠ صفحة)

(٤) اصول القبائل العربية (مخطوط تناول فيه ٢٠ الف قبيلة في العالم العربي) .

(٥) الليالي الاربع (مترجم عن الفرنسية لالفريد دي موسيه وقد نشرت ثلاث منها في مجلة الاخاء الايرانية) .

(٦) مآتم واعراس (مخطوط) .

(٧) الشطرنج (١) (مترجم عن الفرنسية) .

(٨) الروح الخالدة : بحث فلسفي . نظرات في عينية الحكيم ابن سيناء ، تم طبعه عام ١٩٦٠ .

(٩) تفسير سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة النساء وفاتحة الكتاب .

ومن اقواله التي ذهبت مذهب الحكمة والقول المأثور :

(١) من قدس شوكة الجبل عبد وردة الروض (٢) كم اسبغ الاتباع على انبيائهم حتى جعلوهم خرافيين (٣) اذا وثقتم بعضكم ببعض فلا تشيدوا مصانع للاسلحة الذرية (٤) عابد الكرسي مقعد (٥) الشرف عادة وكذلك الرشوة (٦) لا خير في محبة دون عقل (٧) شجرة الزيتون راهبة الاشجار - قداسة - محبة - اصطبارا (٨) رجال الحكم كالجبال يرهبك بعضها ولا يؤنسك ، ويهزك بعضها ولا يرهبك ، ويؤنسك بعضها ويرهبك (٩) الانسان اجمل ما في الوجود اذا تهذب كانسان (١٠) يحمي اللصوص اللصوص في جهاز الحكم الفاسد (١١) المخلص كالاجرب في جهاز الحكم الفاسد (١٢) رأيت شجرة زيتون نامية وحدها في أرض صخرية ، في رأس جبل مطل ، وقد اسبغت على الجبل من بعيد قداسة ، واذكرتني براهب يتعبد على رأس جبل يشرف على ما تحته بعظمة تتجلى فيها بساطة الوجود ، فرأينا فيها مواطنا صالحا يضفي على القفر المحبة والسلام فيجعله يفيض بالخير والنور ، فقلت في نفسي من حقر زيتونة فقد حقر مواطنا صالحا ، ومن حقر مواطنا صالحا حقر الوطن باسره (١٣) احبوا بلادكم يرهبكم عدوكم (١٤) من اهمل اشجاره او ارضه او حيواناته فقد تآمر على سلامة الوطن .

نموذج من نثره : « الى (٢) الطيف الذي ارقني سره ، وبهرني جهره ، ولم يعرف امره ، وفي مبتدؤه وخبره - الى الروح المجهولة الخالدة التي تحدرت منها روحي الانسانية الآبدة ، فتكرم بي الوجود ، وازدهى الكون بنعم الموجود ، فسبح بحمد واجب الوجود ، وتطلعت بعد ذلك للخلود - فبحثت عمن اشعر بوجوده ولا اراه ، واحست كل ذرة في بما قدره وبراه ، ناشدا قربه رغم علاه ، ممنيا النفس الاقتباس من سناه ، عساها تتبع مثله الاعلى ، وتحلق في السناء الاجلى ، والسير في طريقه لها اولى ، لتحيا بذلك حياتها المثلى -

ويستحقق ذلك في يوم معلوم ، يوم يرقى الانسان بعقلـه للنجوم ، وينعم بالعيش الرغيد في ظل العلوم ، ويحيى انسانا في خلق كريم – يوم يشيد ارسخ البروج يطاول الجوزاء ، برج يقرع الفكر الحر من السماء ، يحمل الخير والسلام الى الكون بهجة ورخاء ، وعلى رأسه علم يهتز بشرا ورجاء – فتزدهي الحضارة في ثوب بهيج ، وتعم الاكوان نضرة المروج ، ويتيه الانسان بما حققه من عروج ، وما اقامه للحضارة من بروج – ويتربع على عرش العلم افتخارا ، والعلم اعلى العروش منارا ، عندئذ تتكشف اسرار الحياة جهارا ، ويحق الخلود للنفس المتشوقة استقرارا – وتعود النفس المطمئنة الى ربها راضية مرضية ، فيدخلها جنة الخلود وحاجاتها مقضية ، فتنعم في ملك جديد في جوار ربها رضية ، ونعم دار الخلود دار العلم الوضية – الى هذه الروح المجهولة الخالدة اقدم هذا الاهداء ، ومن خالقها استقي خير أسس الاهتداء ، والسلام على نفس يخرجها العلم من دار الفناء ، ويقودها الى دار الخلود في اسمى درجات البهاء » .

نماذج من شعره : قرض الطاهر الشعر في سن مبكرة وله ومضات لامعة وجولات موفقة في دنيا القريض . ومن فرط اعجابه بالشاعر التونسي المرحوم ابو القاسم الشابي (١٩٠٩ – ١٩٣٤) شطر قصيدته الشهيرة « ارادة الحياة » تشطيرا موفقا ومنها :

ولا بد لليل ان ينجلي   « ولا بد للعيش ان يزدهر »
فحطم بنفسك ذل الحياة   « ولا بد للقيد ان ينكسر »
ومن لم يعانقه شوق الحياة   « تحول ميتا غدا محتقر »
وصار شبيها بماء السماء   « تبخر في جوفها واندثر »
كذلك قالت لي الكائنات   « حديث الحياة ، حديث العبر »
تحدث ان لا حياة لميت   « وحدثني روحها المستتر »
ودمدمة الريح بين الفجاج   « تثير العواطف ، تذكي العبر »
فقاتل وصارع عدوا تراه   « وفوق الجبال، وتحت الشجر »
فعجت بقلبي دماء الشباب   « وشبت بنفسي حريق الغير »
ورمت العداة كسبع الفلاة   « وضجت بنفسي رياح اخر »
واطرقت اصغي لعزف الرياح   « ففيه استمعت لصوت الشرر »

ومن شعره القومي :

« ولي وطن آليت ان لا اخونه »   وان افتديه العمر بالنفس طائعا
نذرت حياتي في سبيل حياته   وكم اتمنى ان ارى الصرح رائعا
فمالي اراه كل يوم بذلة   وقد بيع في سوق المعرة هاجعا
ويا اسفي ان كان قومي عظيمهم   يسوق كريم العرب للذل خانعا
فيما وطني ماذا دهاك وما دهى   منازل امجاد غدون مفاجعا
لنا وطن رحب غني فما لنا   تضيق بنا الدنيا فيغدو بلاقعا
وما العيب في اوطاننا غير اننا   فقدنا سجايانا فصارت مراتعا
اقمنا بناء المجد وضاء في الدنى   وكانت سجايا العرب للكون طابعا
افقنا زمانا ثم لذنا بهجعة   ولم نتخذ للعاديات دوافعا
تكنفنا ذل ... وحل بارضنا   شقاء ... وروينا الربوع مدامعا
وما يبتني مجد بدمع وانما   ارى العلم والاخلاق تبني المرابعا

وعند صدور كتابه « الروح الخالدة » اهدى العاهل الاردني الملك حسين بن طلال نسخة وشحها بهذين البيتين :

العلم تزهو بـه الدنيا فناصره   يحيا على الدهر في حمد وتسبيح
هذي رسالتنا في الروح نرفعها   الى«الحسين» الذي نفديه بالروح

وربطت بين المغفور له الملك عبد الله بن الحسين وبين حفنة من شعراء عمان مجالس الادب التي كانت تعقد في قصر رغدان بعمان او في قصر المشتى بالشونة وجرت بين الملك الشاعر وبين اولئك الشعراء مطارحات شعرية عذبة لو قدر لها الجمع في حينها لجاءت مجموعات من الشعر القيم العذب ، ومن تلك المطارحات ما قدر لي تدوينه في مذكراتي اليومية ..

كان المغفور له الملك عبد الله ينزل في فندق المحطة في بلدة معان عام ١٩٤٦ وكان الشيخ عثمان الشنقيطي قاضي البلدة يلعب الشطرنج مع موظف كبير وكان الاستاذ علي نصوح الطاهر يراقب صراعهما ، واذا بخادم الملك يحمل رقعة من الملك للشيخ عثمان ويقول فضيلته «سيدنا يطلب من فضيلتكم تشطير هذه الابيات » :

ترك السواد للابسيه وبيضا   ونضا من الستين عنه ما نضا
وسباه اغيد في تصرف لحظة   مرضي اعل بـه القلوب وامرضا
فكانه وجد الصبا وجديده   دينا دنا ميقاته ان يقتضى
اسيان أثرى من جوى وصبابة   واساف من وصل الحسان وانقضا

فاخذ الشيخ عثمان في تشطير الابيات وسرعان ما كان الاستاذ الطاهر قد فرغ من تشطيرها ورفعها الى مقام الملك الهاشمي الذي استدعاه وطلب اليه قراءتها فتلا عليه التشطير التالي :

ترك السواد للابسيه وبيضا   « مغوار في الهيجاء سيف ينتضى
« عزم الشباب يلوح فيقسماته»   ونضا من الستين عنه ما نضا
وسباه اغيد في تصرف لحظه   «وهو الوشيك من الهوى ان يمرضا»
« وجد الصبابة والهوى يا ويله»   مرض اعل بـه القلوب وامرضا
فكانه وجد الصبا وجديده   وكان طيب العيش حلم ما انقضى
« هذا على الستين يحسب عمره»   دينا دنا ميقاته ان يقتضى
اسيان اثرى من جوى وصبابة   «وتراه من فعل الهوى شبحا مضى»
« يأس الم به فطار فؤاده »   واساف من وصل الحسان وانقضى

فتحمس الملك الشاعر وقال لخادمه « هات القلم والمحبرة يا غلام ... » وشطر الابيات في الحال فقال :

ترك السواد للابسيه وبيضا   « وتذوق الحب القديم واحمضا »
« ابدى الندامة بعد طول غواية »   ونضا من الستين عنه ما نضا
وسباه اغيد ذي تصرف لحظة   « سهم تعلق بالفؤاد وما قضى »
« حكم الهوى في النفس حكم جائر»   مرض اعل بـه القلوب وامرضا
فكانه وجد الصبا وجديده   « داء يعز دواؤه ان يرتضى »
« وكانه حسب الهوى وفعاله »   دينا دنا ميقاته ان يقتضى
اسيان اثرى من جوى وصبابة   «او سار في حر الهجير وارمضا»
«او نال من وصل الحسان مراده»   واصاف من وصل الحسان وانقضا

وبعد هنيهة صعد الشيخ عثمان الشنقيطي الى مقصورة الملك عبد الله وتلا على مسامعه التشطير التالي :

ترك السواد للابسيه وبيضا   «فعل المليك فلا مناص من الرضا»
« وبدا بحلة اميس متبذل »   ونضا من الستين عنه ما نضا
وسباه اغيد في تصرف لحظة   « اسر القلوب وحتفها ان اعرضا»
« وسلاحه في روحه وغداته »   مرض اعل بـه القلوب وامرضا
فكانه وجد الصبا وجديده   « ولذيذه» في حقه امرا مضى. *
« ورأى الرجوع لحزمه واناته »   دينا دنا ميقاته ان يقتضى
اسيان اثرى من جوى وصبابة   « دهر الشباب وذاك دهر قدمضى»
« فانساب في احلامه متخشعا »   واساف من وصل الحسان وانقضا

عارض نفر من شعراء العروبة عينية الشيخ الرئيس ابن سينا في النفس ومطلعها :

هبطت اليك من المحل الارفع   ورقاء ذات تعزز وتمنع

ومن اولئك الشعراء احمد شوقي امير الشعراء وعادل الغضبان شاعر الشباب والمترجم له علي نصوح الطاهر ومن ذلك قوله :

ورقاء يا طيف الفلاسف رجعي   نغما يردد لحنه في مسمعي
وتسربلي بالخير لا ثوب الهوى   بالخير قد وسم الوجود فابدعي
فلكم اثرت بنا تباريح الجوى   وغويت عقلا للبيب الابرع
انت التي سفرت فحيرت الورى   ثم انثنت وتخمرت بالبرقع

---

(١) اخترع الاستاذ الطاهر الشطرنج الذري واضاف الى القطع المعروفة دبابتين وقاذفتين وقنبلة ذرية وبذلك اتسعت الرقعة العادية فأصبحت ١٤٤ مربعا بدلا من ٦٤ مربعا . (٢) كلمة (الاهداء) التي استهل بها المترجم له كتابه « الروح الخالدة » .

حيرت افكار الرئيس فاصبحت ... نار العلوم تحيطه بتشعشع
لا تسفري يوما بربك بل ارى ... كل الجمال بكنهك المتبرقع
كم يزدهي الكون المبرقع في الدجى ... والفجر يزهو بالسحاب الموشع
والليل اجلى للتأمل في السهى ... والفكر يخمل في الضياء الاسطع
واذا العلوم تقدمت ابحاثها ... واذا تفتح زال سحر المطلع
واذا جلت الغازها حل الحجى ... تنضو البراقع في الزمان المسرع
واذا الحياة تكشفت اسرارها ... بالعلم كنه السابحات اللمع
فيفيض نور الله بشرا في الدنى ... حل الخلود وحق قول الاشفع
والورد تعشقه العيون ملثما ... ويضيء نور النفس زاهي المسطع
ويطل وجه الله ما ابهى اللقا ... ويطيب قلب المؤمن المتطلع
والعلم نور الكون في اشراقه ... والعلم يرفع كل من لم يرفع

٢ ـ الدكتور يوسف هيكل

كان الشعار الذي حمله الدكتور هيكل في النكسة الاولى التي طوحت بعرب فلسطين الى المتاهات ، وفي النكسة الثانية التي عصفت بالجيوش العربية قوله : « ليس عارا ان ننكب ، ولكن العار ان تحولنا النكبات من قوم اعزاء الى قوم اذلاء ، وان نخضع لمشيئة الاعداء ! » .

ولد « يوسف » في يافا بفلسطين ، ووالده هو المرحوم مصطفى هيكل ، وتحدر من اسرة عريقة من اقدم الاسر اليافية ، يرجع تاريخها الى حوالي القرن السابع عشر ، وقد ينزح افرادها من مصر الى فلسطين ويعود نسبهم الى قبيلة يمنية جاءت مصر مع عمرو بن العاص ، واستوطنوا في الجهة الشرقية ، وعهد اليهم بالحفاظ على امن الطريق البري الذي كان يسلكه الحجيج .

ونشأ « يوسف » في بيت علم ، ودرج في اسرة ذات مكانة اجتماعية شاء عميدها والده تعليم نجليه وكريماته تعليما عصريا ، فارسل البنات الى المدرسة الانكليزية بيافا ، في عهد كان فيه تعليم بنات العائلات الاسلامية امرا غير مرغوب فيه .. ناهيك عن تعليمهن في مدرسة انكليزية .. وأرسل نجله « محمدا » الى مدرسة الفرير بيافا فالجامعة الاميركية ببيروت .

اما « يوسف » فبعد ان اكمل دراستيه الابتدائية والثانوية في يافا التحق بالكلية العربية بالقدس وحاز على شهادتها وشهادة المترك لحكومة فلسطين في تسع مواد بينما المطلوب ست مواد ، واشتهر بين لداته بتفوقه بالرياضيات ، واعد نفسه ليكون مهندسا ، لكن مطالعاته لكبار الكتاب العرب امثال الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور طه حسين والدكتور احمد امين وعبد القادر المازني وعباس محمود العقاد وغيرهم جذبته الى العلوم الاجتماعية والسياسية والانسانية .

وابان كان طالبا ثانويا برزت فيه ملكة الكتابة فنشر في جريدة « فلسطين » ابحاثا تناولت تحرير المرأة بتوقيع «ابن يافا» كما نشر سلسلة مقالات في جريدة « الصراط المستقيم » وصف فيها رحلة تاريخية قام بها عام ١٩٢٩ مع لفيف من زملائه الى « البتراء » كما حاضر في المكتبة الاسلامية التابعة للاوقاف بيافا فاستمع اليه رجال الفكر وقدمه المرحوم راغب الامام المحامي والخطيب المشهور ونشر مقالا مسهبا في « السياسة الاسبوعية » بعنوان « معركة تور » التي دارت في فرنسا بين الجيش العربي وجيش الفرنجة ، وجرت مراسلات بينه وبين المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل اثرت في حياته الثقافية واتجاهه الدراسي وكان بمثابة اب روحي له .

دراسته الجامعية : لم تثن « يوسف » وفاة والده عن طلب العلم الجامعي ، فبعد تخرجه من الكلية العربية بالقدس التحق بكلية الحقوق في جامعة مونبليه بفرنسا وحاز على بكلوريوس الحقوق ومن ثم الليسانس وعلى دبلوم تخصص في العلوم الجنائية ، والتحق بعدها بكلية الحقوق في جامعة باريس ونال دبلوما عاليا في العلوم الاقتصادية ودبلوما عاليا اخر في العلوم السياسية والحقوق الدولية. وفي عام ١٩٣٥ حاز على شهادة دكتوراه الدولة في الحقوق ، وهي اعلى شهادة يستطيع الطالب الحصول عليها من فرنسا ، وكان موضوع رسالته « حل مجلس النواب » وهو بحث دستوري هام كان موضع جدل في الاوساط السياسية الفرنسية .

وحملته نفسه التواقة للمزيد من العلم على متابعة الدراسة الجامعية فقصد لندن والتحق بجامعتها ودرس في « معهد لندن للدراسات الاقتصادية والسياسية » وكان استاذه الخاص البروفسور هارولد لاسكي . وبعد عامين امضاهما في جامعة لندن مستزيدا من العلوم السياسية والاقتصادية كانت الاطروحة التي قدمها لنيل (الدكتوراه) باشراف لاسكي بعنوان « رئيس الوزراء وتطور النظام النيابي في فرنسا » فقوبل هذا المجهود العلمي بتقدير اساتذته الذين منحوه الشهادة بتقدير (جيد جدا) ، يضاف الى هذا ان جامعة لندن منحته عام ١٩٢٧ مدالية التفوق بوصفه الاول في الدراسات العليا الجامعية ، وكان الشرقي الوحيد الذي نال مدالية التفوق هذه حتى ذلك التاريخ ، ولا يزال العربي الوحيد الذي نال « مدالية هتشنسن الفضية للتفوق» وهي اعلى مدالية علمية تمنحها جامعةلندن.

ويعتبر الدكتور هيكل الحائز الوحيد في العالم العربي على اعلى شهادة علمية فرنسية واعلى شهادة علمية بريطانية في آن واحد ، ولقد نشرت هذه الاطروحة في باريس عام ١٩٣٧ وجاءت في ٥٥٠ صفحة من القطع الكبير ، ومهد لها البروفسور لاسكي بمقدمة ضافية ، وتعتمدها الجامعات الفرنسية والبريطانية كمرجع للدراسات العليا ، وافادت هذه الاطروحة الدكتور هيكل ، ابان عمله في السلك السياسي الاردني، اذ سبقه اعجاب رجال وزارات الخارجية وتقدير رجال السلك السياسي في الاقطار التي عمل فيها سفيرا فكانت باعثا على توثيق عرى المودة والتعاون بينه وبينهم .

وخلال دراسة الدكتور هيكل في جامعة لندن كتب المقالات الضافية عن القضية الفلسطينية في الصحف البريطانية والفرنسية ونقل للقارىء العربي انعكاسات هذه القضية في نظر الرجل الاوروبي، وعمل مع رهط من الطلاب العرب الفلسطينيين في الجامعات البريطانية للدفاع عن قضية العرب الكبرى وابراز اخطار الصهيونية على البلاد العربية والاوروبية ، واسس الطلاب العرب الفلسطينيون عهد ذاك جمعية لهذه الاهداف القومية وانتخبوا الدكتور هيكل رئيسا لها .

ويوم كان الدكتور يوسف طالبا في جامعة مونبلييه ، كان يجلس في قاعة المحاضرات ازاء طالبة فرنسية ذكية اسمها « دي نيس دل رنك » فتوثقت الصداقة بينهما واقترنا اثر نيلهما شهادة الليسانس في الحقوق ، ومن مونبلييه ذهبا معا الى باريس فلندن وفي عام ١٩٣٧ عادا الى يافا المدينة المحبوبة وطبع الدكتور هيكل كتابه النفيس « القضية الفلسطينية » ولهذا الكتاب قصة طريفة اسوقها للقارىء النابه :

لما كان الدكتور هيكل طالبا في جامعة لندن نشبت ثورة عام ١٩٣٦ في فلسطين وشرعت الصحف البريطانية والفرنسية في نشر المقالات والفصول عنها ، بصورة تؤيد باطل الصهيونية ومزاعمها ، فعاد الدكتور هيكل صيف ذاك العام الى فلسطين وراح يدرس عن كثب الوضع السياسي والثوري ، وجاب القرى والجبال ، واجتمع بعدد من الثوار ، وعاد الى لندن وعكف على وضع كتابه « القضية الفلسطينية » باللغة الفرنسية وقدمه الى احدى دور النشر في باريس لكنها طلبت مبلغا كبيرا لقاء طبعه ، ولما لم يقو على دفعه ، وهو طالب جامعي ، صرف النظر عن نشره بالفرنسية . ولما عاد الى يافا عام ١٩٣٧ وضعه بالعربية ودفعه الى المطبعة ، وحدث ان زار فلسطين الدكتور محمد حسين هيكل باشا صاحب كتاب « حياة محمد » وعلم بالشروع في طبع الكتاب فوضع له مقدمة تقديرا منه لكتاب نفيس ضم بحثا علميا رصينا عن الحركات القومية وما جرى في فلسطين ، وقد جاء في هذه المقدمة قوله :

« ولقد جعل الدكتور يوسف هيكل التقارير الرسمية البريطانية وتصريحات الساسة البريطانيين واقوال زعماء الصهيونية انفسهم عمدته

في هذا الكتاب . ويكفي ان تلقي نظرة على ذيل صفحة قبل ان تقرأها لترى ان تقارير اللجان الانكليزية التي جاءت الى فلسطين في سنوات مختلفة لتحقيق ما جرى فيها ، وان تفسيرات الساسة البريطانيين لتصريح بلفور ، وان الكتب الانكليزية البيضاء ، وان محاضر البرلمان البريطاني ، كانت المراجع التي يعتمد عليها ، فضلا عن اعتماده على الكتب الانكليزية وعلى آراء زعماء الصهيونية . لهذا ولسوق الوقائع والحوادث في سياق منطقي دقيق يشعر الانسان اذ يقرأ الكتاب بشوق ولهفة متزايدين لمتابعة قراءته واستيعابه كله . ويشعر اثناء ذلك بانه ينتقل من حقيقة الى حقيقة ، ومن مسألة مقررة لا سبيل الى النزاع فيها الى مسألة مقررة ثابتة مثلها . ويزيد الانسان طمأنينة الى الدقة فيما يقرأ من ذلك كله ظهور القصد فيه الى الحقيقة ، والبعد فيه عن التجريح والطعن ، والتنزه عن كل قول تبدو فيه نزوات الغضب .

واذا لم يكن هذا كله عجيبا من رجل تثقف ثقافة الدكتور يوسف هيكل وبلغ من العلم مبلغه ، فهو لا ريب عجيب من شاب في مثل سنه لم يبلغ الثلاثين . وصدوره من هذا الشاب ادعى الى العجب والامر يتعلق بوطنه ومصير هذا الوطن . هذا المصير المعلق اليوم في كفة القدر والذي يهدد عرب فلسطين باجلائهم عنها او بالقضاء عليهم فيها اذا هم لم يتدبروا الامر بالروية والحزم لانفسهم ولابنائهم من بعدهم.

وأشهد لو اني كنت مؤلف هذا الكتاب وكان وطني قد أصيب بما أصيبت به فلسطين في الزمن الاخير لتعذر علي أن أجد قدرا من ضبط النفس كالقدر الذي وجده الدكتور يوسف هيكل على تفاوت ما بيننا في السن تفاوتا يجعلني منه في مقام الابوة او العمومة . ذلك بانني اعمل في شؤون مصر العامة مناضلا لا اعرف الهوادة، أما الدكتور يوسف هيكل فعهده بالدراسة العليا وبالبحث العلمي في الشؤون السياسية والاقتصادية قريب . وهو بعد لم يندمج في السياسة العملية هذا الاندماج الذي يجعلنا مرهفي الحس الى حد ننسى معه في كثير من الاحيان هدوء العلم والطمأنينة الى نتائج البحث العلمي ولم نرض عواطفنا ونزعاتنا الذاتية .

وهو من هذه الناحية جدير بان يهنىء مرتين : مرة لانه عصم شبابه من التحكم في بحثه والتسلط على نتائج هذا البحث ، والثانية لانه خاض غمار هذا الميدان السياسي بنزاهة علمية في الوقت الذي يتعذر على غيره فيه ان يضبط نفسه وأن يرعى ما تقضي به النزاهة العلمية».

وفي عام ١٩٣٧ عقد مؤتمر بلودان وكان الدكتور هيكل احد اعضائه فنشر مقالات اضافية في جريدة « النهار » البيروتية عن « مشروع تقسيم فلسطين وأخطاره » ومقالات اخرى في « بيروت المساء » عن « لبنان في خطر » ومثلها بالافرنسية نشرتها « لوجور » البيروتية ، ثم طبع كراسين لهاتين المجموعتين ووزع منهما ٣ آلاف نسخة على المؤتمرين وعلى رجالات البلاد في سورية ولبنان وفلسطين ، وكانت هذه الابحاث مساهمة علمية وعملية منه في مؤتمر بلودان .

وفي اوائل ١٩٣٨ عين الدكتور هيكل مديرا لاوقاف لواء اللد الذي يشمل يافا واللد والرملة وقراها ثم رقي عام ١٩٣٩ الى مفتش عام الاوقاف والمدارس الاسلامية بفلسطين ومركز عمله بيت المقدس فنظم شؤونها ووضع لها منهجا دراسيا حديثا فتقدمت تلك المدارس تقدما ملحوظا ، وظل في عمله هذا حتى عام ١٩٤٣ وكان في اثنائه في نضال مستمر مع العناصر المحافظة التي تعمل معه في هذا الميدان ، على ان الرجعية تألبت عليه فاستقال من عمله في المجلس الاسلامي الاعلى .

وخلال عمله هذا عين عضوا في « مجلس التعليم العالي بفلسطين » وأذاع أحاديث عن السياسة الدولية ونشر مقالات في مجلة «الرسالة» عالج فيها الاوضاع الدولية في تلك الايام ، على ان انتاجه الفكري الهام في تلك المدة كان كتابه « نحو الوحدة العربية » .

يؤمن الدكتور هيكل ، منذ تخرجه من الجامعات ، بان مستقبل العرب كأمة قوية ذات مكانة دولية يتوقف على ايجاد « اتحاد فيدرالي » بين الاقطار العربية . وفي عام ١٩٤٢ وضع كتابه « نحو الوحدة العربية » ونشرها الدكتور أحمد أمين افتتاحيات في « الثقافة » وفي عام ١٩٤٣ نشرتها « دار المعارف » بمصر في كتاب صغير الحجم كبير الفائدة واعادت نشره عام ١٩٤٥ فكان أول كتاب عالج الوحدة العربية بطريقة علمية دقيقة وقال فيه البروفسور فيليب حتى برسالة بعث بها الى « جمعية العلماء الاميركية » بواشنطون : « ان كتاب «الوحدة العربية » الصغير الحجم له أثر كبير في تطور الفكر السياسي العربي عند الشباب العربي في مختلف الاقطار العربية » .

وقال الدكتور عبد الوهاب عزام في مقدمته لهذا الكتاب :

« الدكتور يوسف هيكل من علماء العرب المهتمين بامورهم ، الساعين للتأليف بينهم ، الداعين الى اعادة مجدهم ... ولقد استجاب الدكتور يوسف هيكل لدعوة الواجب ، فبادر الى نشر كتابه « نحو الوحدة العربية » ليستيقظ الفكر وينشط البحث في هذا الموضوع الجليل الى ان تنجلي مقاصده وتتضح وسائله ، وقد نهج المؤلف نهجا مستقيما قاصدا لا غلو فيه ولا تحكم . فهو يعرض آراء متصلة بالحقائق ومؤيدة بالوقائع ، ويقترح نظما للاتحاد لا يفرضها على الباحثين ولكن يجعلها مثلا لما يمكن ان يوضع من نظم ! » .

وعندما تكلم الدكتور يوسف عن مصر في هذا الكتاب قال : « ان الحقائق تثبت لنا ان أهل وادي النيل شعب عربي والقول بخلاف ذلك فرار من الحقيقة الواقعة التي لا يمكن تغييرها كما لا يمكن تغيير مجرى وادي النيل بجعله يجري من الشمال الى الجنوب بدلا من جريه من الجنوب الى الشمال . والمظاهر تضلل بعض الناس ، كما ان نهر النيل يضلل الناظر اليه ، الجاهل بحقيقته فيظنه يجري من الشمال الى الجنوب لهبوب الريح من الشمال واحداثها تموجات في سطحه متجهة نحو الجنوب ، فهذه التموجات لا تغير حقيقة اتجاه مجرى النيل . والحقيقة كالظل لا يهرب منه الا بطريق واحد هو العيش في الظلام ! » .

وبالرغم من ان كتاب « نحو الوحدة العربية » وضع عام ١٩٤٢ وطبع عام ١٩٤٣ ففصوله لا تزال معالجة صائبة للوضع العربي الراهن وبيان واضح لضرورة ايجاد اتحاد بين البلاد العربية .

وعلى اثر استقالة الدكتور يوسف هيكل من عمله في المجلس الاسلامي الاعلى عين مسجلا وحاكم صلح في محكمة مركزية نابلس وظل يشغل هذا المركز الى نيسان ١٩٤٥ اذ اصبح رئيسا لبلدية يافا .

واثناء عمله في القضاء نشر في مجلة « الثقافة » القاهرية ثلاث افتتاحيات عالج فيها « التمثيل الدبلوماسي » كما وضع كتيبا للمدارس الابتدائية بعنوان « أجداد النبي » وقد جاء فيه تحت عنوان « الوطن العربي » ما نصه :

« وطن كل انسان البلاد التي ولد فيها وعاش ، والبلاد التي يسكنها اناس من جنسه . وكل انسان يحب وطنه حبا جما . وواجب كل عربي ان يحب وطنه ويعرفه . والوطن العربي بلاد جميلة واسعة . وهو مؤلف من جزيرة العرب وشمال افريقية وهي بلاد واسعة جدا فيها الصحاري ، والسهول ، والجبال ، وفيها الانهر والبحيرات ، وهي مقسمة الى اقسام ، لكل قسم منها اسم خاص . واقسام جزيرة العرب هي : العراق والكويت ومسقط وحضرموت واليمن ونجد والحجاز وبر الشام .

وبر الشام مجزء الى اربعة اجزاء هي : سورية ولبنان وشرقي الاردن وفلسطين . أما الحجاز فبلاد مقدسة عند المسلمين يقع في الجهة الشرقية من جزيرة العرب وشواطئه على البحر الاحمر . واشهر مدن الحجاز مكة المكرمة والمدينة المنورة .

والوطن العربي في شمال افريقية واسع وجميل وهو يحتوي على مصر والسودان وبرقة وطرابلس الغرب وعلى تونس والجزائر ومراكش . هذه البلاد كلها تؤلف الوطن العربي . وهي بلاد غنية جميلة وعلى

كل تلميذ ان يزورها متى كبر ويعرف تاريخها الجميل ويحبها كثيرا ، فحب الوطن من الايمان !) » .

وعزم الدكتور هيكل على وضع سلسلة بعنوان « قصص أبطال العرب » ليحبب الطالب العربي بتاريخ امته ويشوقه الى مطالعة الكتب ايمانا منه بأن المطالعة هي مفتاح المعرفة والثقافة . غير ان اختياره لرئاسة بلدية يافا وانهماكه في الحياة الادارية والسياسية حال بينه وبين تحقيق هذه الامنية الثقافية .

وفي عام ١٩٤٥ وقع اختيار المسؤولين في حكومة الانتداب على الدكتور هيكل ليكون رئيسا لمجلس بلدية يافا فقبل المنصب مشترطا انتخابات حرة لمجلس جديد فتم ذلك وفازت القائمة التي تزعمها برمتها ونال أعلى نسبة من الاصوات وقام باصلاحات عظيمة في يافا كانت مضرب المثل بين المدن الفلسطينية . وكان أول عمل قام به بجرأة هو تحرير البلدية من السيطرة الانكليزية الممثلة في شخص « كاتب المدينة » الانكليزية . و « كاتب المدينة » في نظام البلديات بفلسطين هو « السكرتير العام » للبلدية أو « المدير العام » فقرر احالته على التقاعد وتعيين رجل عربي قدير في مكانه فوقع الاختيار على الاستاذ عبد الحميد ياسين وهو من اكفأ رجالات فلسطين واقدرهم .

وفي عام ١٩٤٧ عاد السيد جمال الحسيني الى فلسطين وألف « الهيئة العربية العليا » وكان الدكتور هيكل من اعضائها . ولما قررت الامم المتحدة تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ اخذت بوادر الاضطرابات تلوح في افق فلسطين ، وأخذ القتال بين العرب واليهود يشتد فزار الدكتور هيكل العواصم العربية مرات ، شارحا للمسؤولين حراجة الموقف في فلسطين ، ومطالبا باتخاذ اجراءات عسكرية حفاظا على فلسطين من الاطماع الصهيونية ، فاسفرت جهوده عن ارسال كميات من الاسلحة واعداد من المتطوعين العرب ، على ان الخلافات الناشبة بين الدول العربية آنذاك أدت الى انحدار المقاومة العربية في المدن والقرى الفلسطينية ونزوح الاهلين الى الاقطار المجاورة فقصد الدكتور هيكل عمان وأسس فيها « مكتب فلسطين » بالاشتراك مع عدد من الشبان الفلسطينيين لمساعدة النازحين في الامور الادارية لا سيما في امور جوازات السفر والهويات .

وخلال اقامته بعمان كان على اتصال وثيق بالمغفور له الملك عبدالله ووضع كتابا طريفا بعنوان « جلسات في رغدان » ضمنه وصفا لتلك المجالس والاحاديث التي دارت فيها ، وهو مصدر تاريخي هام لحياة الملك الهاشمي خلال عام عصيب امضاه الدكتور هيكل في عمان قبيل انتسابه للسلك السياسي الاردني .

لم يفكر الدكتور هيكل بان يعمل موظفا في الحكومة الاردنية لكن اصرار الملك عبد الله حمله على الذهاب الى واشنطون رئيسا لاول بعثة اردنية وتأسيس أول مفوضية هناك وعمل سفيرا للاردن في كل من واشنطون ولندن وباريس وتايبيه مدة ١٦عاما أي من (١٩٤٩ ـ ١٩٦٥) وشغل خلالها مركز رئيس لجنة الهدنة الاردنية ووكيلا لوزارة الخارجية كما شغل منصب المندوب الاردني الدائم في هيئة الامم (١٩٥٧ ـ ١٩٥٨) اثناء وجوده سفيرا في واشنطون .

ونظرا للخدمات التي اداها الدكتور هيكل للقضية الفلسطينية في الاندية الدولية كلف اشغال مركز وزير الخارجية الاردنية ثلاث مرات لكنه آثر العمل في السلك الخارجي نظرا للخدمات التي يؤديها للاردن والقضايا العربية في الاوساط الدولية .

وبعد ان تحرر الدكتور هيكل من العمل الرسمي قام برحلة استطلاعية الى اسبانية ليشاهد آثار العرب وامجادهم في الاندلس ونشر بحثا قيما في مجلة « العربي » الكويتية بعنوان « عاش العرب في الاندلس ثمانية قرون » ونشر مقالات في جريدة « فلسطين » الصادرة بالقدس عالج فيها حق المواطن في وطنه والوضع القانوني للنازحين الفلسطينيين في البلاد العربية .

وفي عامي ١٩٦٦ و ١٩٦٧ قام برحلة علمية حول العالم دارسا أوضاع البلاد الاسيوية وعاد الى الاردن اثر النكسة الفلسطينية الثانية وشرع يعالج ما يتوجب على العرب عمله وذلك بابحاث نشرتها «الدفاع» الاردنية و « الرأي العام » الكويتية .

نموذج من نثره : « كانت العواصم العربية في الاندلس خلال القرون الوسطى ، كقرطبة ، وغرناطة واشبيليا وسرقوزا أرقى مراكز العلم في اوقاتها . وكانت فيها الجامعات الراقية عديدة ، وقد بلغ عددها في قرطبة وحدها خمسين جامعة ومدرسة ، وتفوقت هذه الجامعات بالطب والفلسفة والرياضيات والكيمياء والفلك وعلم تفسير الاحداث حسب مواقع وحركات النجوم وعلم الارواح ، ووضع العلماء في هذه العلوم وغيرها المؤلفات المتعددة التي كانت مرجعا لطلاب العلم في الشرق والغرب عدة قرون ، وظلت تؤثر في الفكر الاوروبي حتى القرون الحديثة. ومن أهم من اثر على الفكر الاوروبي بكتاباته الفيلسوف العربي العالم ابن رشد المولود عام ١١٢٦ في مدينة قرطبة والمتوفي عام ١١٩٨ . وقد عرف الغرب عن طريقه فلسفة ارسطو التي نقلها ابن رشد الى العربية وعلق وزاد عليها . ولقد كان لآرائه اثر كبير في الاوساط العلمية الغربية ، حتى ان جامعة باريس خشيت من تلك الافكار المتحررة فادانتها . وأمر البابا بحرق كتبه وحرم قراءتها . وتعرف بعض المعاجم الاوروبية « ابن رشد » بانه صاحب أعظم عقل نير واسع العلم والاطلاع في القرون الوسطى . وكان كثيرون من محبي المعرفة في الغرب يؤمون هذه الجامعات للدراسة فيها والتزود من العلم والمعرفة التي لم يجدوها في جامعاتهم . كما ان الجامعات العربية في الاندلس كانت تزود بعض الجامعات الاوروبية بكبار اساتذتها للتدريس فيها مدة من الزمن مساعدة لها في ميدان العلم والمعرفة . ولأذكر هنا قصة لها علاقة بهذا الموضوع :

عينت عام ١٩٤٩ سفيراللاردن في الولايات المتحدة الاميركية ، واثناء وجودي هناك دعيت وقرينتي مرات لتناول العشاء في بيوت عدد من رجالات الحكم . وذات مرة ، وكنا حوالي ثلاثين مدعوا ، في بيت وزير من الوزراء ، وبعد العشاء دار الحديث حول « النقطة الرابعة » (المساعدات الفنية الاميركية) وما تحرزه من نتائج طيبة في اوربا . وكان المجتمعون يتحدثون بهذا الفتح الجديد في التعاون بين الدول الهادف الى تقديم الدول المتقدمة المساعدات العلمية والفنية الى من هم في حاجة اليها من الدول الاخرى . وبينما هم في نشوة هذا الحديث شاركتهم فيها قائلا :

« ان فكرة « النقطة الرابعة » فكرة انسانية جليلة ، ولكنها ليست بجديدة » وهنا صمت الحاضرون وقال أحدهم : « وكيف ذلك ؟ » قلت : « عندما كنت طالبا في جامعة مونبلييه القى البروفسور دالماس عميد كلية الطب محاضرة في قاعةمحاضرات البلدية عن انشاء جامعة مونبلييه عامة وكلية الطب فيها خاصة . واثناء محاضرته قال انه عندما اراد اهل مونبلييه في اوائل القرن الثاني عشر انشاء جامعتهم وجدوا ان ليس في مدينتهم الاساتذة والعلماء ذوو الكفاءة اللازمة لانشاء الجامعة والقاء المحاضرات العالية ، ففكروا بالاستعانة بجامعات اخرى لهذه الغاية . نظروا اولا الى باريس فرأوا انها ليست احسن حالا منهم . ثم فكروا في روما فوجدوا انهم احسن حالا منها . اما انكلترا والمانيا فكانتا لا تزالان في الاشواط الاولى من العلم والثقافة . وبعد بحث قرروا ان لا مناص لهم من طلب تلك المساعدة الفنية من البلد الوحيد الذي يستطيع ان يمدهم بالاساتذة والخبراء الاكفاء ، وهو الدولة العربية في الاندلس . اتصلوا بها ، وعرضوا عليها وضعهم ، فلبت الحكومة العربية طلبهم ، وارسلت الى مونبلييه ثلاثة من كبار الاساتذة المشهورين بالطب والعلوم والفلسفة . عكف هؤلاء على مهمتهم ، واخذوا ينظمون الجامعة ، سيما كلية الطب ، مع الاساتذة الفرنسيين ، كما القوا المحاضرات العلمية فيها ، خلال ثلاث سنوات . وبعد ذلك وجدوا ان في وسع الاساتذة الفرنسيين الاستمرار في عملهم دون الحاجة اليهم . فاستأذنوا بالعودة الى اعمالهم في جامعتهم في اسبانيا العربية » .

عمان ـ الاردن **البدوي الملثم**

اصـــداء

اديـــل الخشن

الشويفات ـ لبنان

ضمني اليك
أيها الحاقد
سمرتك قنديل ملتهب
وانا يبهجني انصهار الحطب
في مواقد الشتاء

افتح لي ذراعيك
فأغرق رأسي
في حلقة من عبير .
خداي تتلهفان الى صدرك
الى حفيف الخفقات
يدغدغ اذني
يملؤهما بالضجيج
الهارب من اعماق البحر

على صدرك اضيع
اغفو
كفرخ دجاج
اتغلغل في دفء الجناح .

ماذا عليك لو سألت
لو مررت بيدك
على عينين
يومض فيهما
حب غريق
يعيش خلفهما التاريخ

تعـــال
انزع قفازيك
اطلق النار المغلولة تحتهما
لماذا تفتعل اللامبالاة ،
اما من همسة ! !
فتتبخر اكوام الجليد .

يداك تعبتان

من عناق الفراغ
اعراقك تناديني
صمتك يكلمني
يزرع حقلا من السنابل
في اعماقي
يحكي لـــي
الف حكاية .

عاصفة هوجاء
كنست غلالات الدفء
رشت الزعفران
على وجه الشمس
تركتني في غابة من صقيع

عيناك ترشقان الثلج
شفتاك
ترشقان الثلج
يـــداك

ترشقان الثلج
والتاع
كما النخلة
في صحراء من الصمت
والغربة .

وقلبـــي ! !
كيف اسكته ،
كيف اخفي هذا التناغم
المتماوج في آفاقه
انه ينوح ،
يترجرج
يريد التهام الزمن
الاحتراق في رقصة النار .

في شراع تائه
غرزت يدي
الشاطيء يوميء . . .
واقف حائرة
امام امواجه الهاتفة .

انتشلني من هوة الاصداف الكاذبة .
لنبعث الربيع
نعطيه الوانه
نفجر فيه شذاه

ضمني أليك
فالخريف يخيفني
اوراقه المتناثرة
كوقع اجراس الحزن في اذني
صفـــراء
كنبأ الموت في قلبي
باردة كغرفتي
التي لا يدفئها
قنديل ملتهب

قصة

المسمار والكفن

بقلم سارة ناعورة

هذا الجمع الغريب المتناقض يذكرني بما حدث في منزلنا ذات يوم رهيب كان يبدو عاديا وكنت افكر كما يفكر كلا منا افكارا شتى حينما يكون في السيارة اثناء عودته الى منزله . لكن افكاري بدات تدور حول المقبرة حينما اراد احدهم النزول قربها فاثار في نفسي مشاعر مختلفة ، فتلك المقبرة كانت رفيقة طفولتي ومختلفة تماما عما هي عليه اليوم .

اذكرها بقعة تكثف فيها اشجار الصنوبر ، وابدا تغطي ترابها اللين الاعشاب الطويلة الريانة ، لم ارها منذ امد طويل ، بل كنت اراها الا اني اعتدتها بصورتها الجديدة فانفصلت عنها ونسيتها والواقع ان السبب هو التغيير الذي طرأ عليها كما اني كبرت ، ومضت لحظات اطلت بعدها غابتي الصغيرة فشعرت بالوحشة تدب في ترابها لعله يحن الى قدمي العاريتين الصغيرتين ، اسمع انين اشجارها الخائفة يؤنبني لاني كففت اساطيري عنها ويذكرني بجناح الفراشة والضباب الازرق . بالصرصار المبقع ومعارك النمل الطويلة .

ـ يا صديقتي الصغيرة الخائفة لا استطيع ان امنع الناس من الموت ولا استطيع ان ابعدهم عنك .. لا ادري لما اختاروك مقبرة .

وبكت غابتي الصغيرة وبكت .

ـ اعرف ان الاشباح تعذب اغصانك ، صخورك ، اشواكك وورودك ، اتعتقدين ان الاموات حملوا معهم جهلهم وحقدهم وغرورهم واتوا اليك يعترفون بكل هذا ويحاولون التكفير بالاعتراف ؟ اعتقد انهم يحاولون التكفير حقا ، لعلهم اكتشفوا حقيقة الانسان بموتهم فكيف انقذك يا صغيرتي الخائفة من ضمير الاحياء اذا كنت انا اصنف من الاحياء ولا استطيع انقاذ نفسي .

واردت يومها ان اتفلسف وافلسف الواقع كي ابعد عني بعض الكآبة التي انتابتني ففكرت ان لكل عدة ميدانها ، فالقلم للورق والطنجرة للطبيخ والكفن للاموات وبلدتنا لهذه المقبرة الجديدة التي يتزايد عدد سكانها يوما بعد يوم نظرا لتزايد عدد سكان البلدة .

وشعرت بالغثيان .. بالغثيان لفلسفة الطبيخ هذه وفجأة توقفت السيارة لتنزل الراكب ثم شعرت بها تنطلق بقوة كذب مبتعدة عن المقبرة ولاول مرة شعرت باشمئزاز من سكان البلدة ، فقد احسست مدى تطفلهم ، اذكر اني نظرت في الصباح من النافذة فلم ار نخلة واحدة . اين نخيلاتي الحبيبات اللواتي كنت ازورها كل رابعة صباحا كي اجمع الثمر المتساقط اثناء الليل ؟ اين زواريبها الملتوية ؟ اين ازهار الصبير الصفراء التي كنت اعلقها اقراطا في اذني ؟ شجر الليمون وزهر المشمش ، اين زهر الجمال وزهر الدراق ونظرت للسائق فكان جامدا متحجر الوجه والاحساس وتابعت السيارة انطلاقتها ليس حبا بالسرعة ولا خوفا من افكاري بل من المقبرة وبابها المفتوح لذا فكادت تصطدم بسيارة اخرى فتشاجرتا وبعد دقائق تابعتا السير بجنون الا اني ابتسمت اذا استطعت ان اميز حصانا يجتر العشب على رصيف الطريق .

والحقيقة ان افكاري تتوقف عند هذا الحد بعد نزولي من السيارة لابدأ التفكير والتخيل باشياء جديدة تتوافق والجو الجديد الذي اصادفه اثناء قطعي الامتار العدة المؤدية الى العمارة التي نسكن فيها. واعتقد ان هذه المرة كانت مختلفة فقد ابت الصدف الا أن اتم التفكير بما بدات به حين كنت في السيارة ولكن من الضروري ان تتم او ان تكون النهاية نظرية ذلك اني لم اكد اخطو بضع خطوات حتى فوجئت بجمع غفير كهذا الجمع ، بعضهم يدخل وبعضهم يخرج ، وتسمرت قدماي للحظات في ارض الطريق ، لكني تابعت السير وانا الاحظ ان بعضهم صامت يهز رأسه ، بعضهم آسف ، بعضهم يبتسم كالبرق وبعضهم صامت لكنه غير مهتم وانا كنت من الجمع الاخير فهذي عادتي ولكني ارضاء لمجرى تفكيري اردت ان اعرف ما حدث وان يكن بغير اصرار فقد اثار خيالي وجود هذا الجمع الحزين المخادع ، واذا بالقلق يتملكني فجأة بعد ان رايت اخر الخط ينتهي عند باب شقتنا وكان البكاء يتعالى فيتعالى معه اضطراب دمي وركضت ثم حشرت رأسي بين الوجوه وجسدي بين الحائط والباب والاثواب وكتل اللحم . كلهم متشابهون كلهم يلبسون الاثواب ولهم سيقان وارجل كي يلبسوا بها الاحذية ، كلهم يملكون رؤوسا ليصففوا عليها الشعر فلما اخاف منهم ؟ مما اخاف اذا كانوا عددا كبيرا ؟

ـ امي .. ابي

وتعالت الاصوات .. والبكاء ، اتعالت ام اقتربت انا ؟ اني لا استطيع أن ادرك وفجأة احسست بل وجدت نفسي وحيدة . انفجر السكون في اذني وران وبدات

تحدق بي الاعين بالعشرات ، اننا ابدا نرسم ونصور الكائنات التي ستغزو كوكبنا او سكان المريخ بصور مخيفة ولكن لو اتى هذا المريخي الن يخافنا ايضا ويرانا كالوحوش وخاصة بهذه الحدق التي تقطر دموع التماسيح ؟

وادركت على مهل ما حدث .

ادركت اني افتقدت بين هذه الاعين حدقتين لم تنظرا الي انهما حدقة ابي الذي خجل ان يخدعني كما يفعلون وافتقدت حدقة امي المسمرة على جسد ابي المسجى على السرير الابيض .. وقفت بصمت امامه وانا اضم يدي المسدلتين امامي .. انني احبه كثيرا ، بالطبع لن يموت .. ما لهؤلاء ، كانت المفاجأة قد اخرستني والجمتني فاحسست بجسدي يثقل ، بلساني ينشف ، وبراسي يدور .

– يا حبيبتي

واشرقت الحقول امام عيني وتماوجت زهرات بخور مريم وطار الياسمين ابيض ابيض غطى المكان والافق وتكاثف وغطى الكون ولا زال يتطاير وعبق الاريج وانهمرت دمعتان بصمت .

– امي

– يا حبيبتي

– ابي سيعود

تدحرجت الدموع على وجنتيها الشاحبتين فاشرقت بها وتعالى البكاء والصراخ .. كم ذكرى تعيش في قلبك الطيب اماه ، سينسلخ عنك أماه ، لكنك لن تكوني وحيدة اماه ، اذا كنت انا لا اصرخ فما بالكم تصرخون ؟ اشعر بالاختناق .. الصراخ .. السكاكين .. الصراخ .. موسيقى ناشزة اغبياء كسلاء . انكم تعذبوني .. تعذبوني كما تعذبون غابتي الصغيرة .

– يا ابي لا تعذبها انك لم تقترف ذنبا ، اننا نحبك نحبك .

ومع الدمع كنت ارى وجها وجهين .. ثلاثة .. لم اعد ارى سوى شفاه . الشفاه تتحرك بصمت وخبث بحركات غريبة لم اعد اسمع سوى صوت الصمت يلف المكان ، وبدأت ارى الياسمين تبعثره اذرعا تلوح ، مناديل سوداء تتطاير من خلاله رقيقة شفافة ، بدأت تتطاير بلطف وعلى مهل كالنسيم والضباب ، وتهادى جسد ابي فوق الياسمين وغاب . حملوه ليغسلوه في المطبخ . وحاولت ان الحق به، فذبل الياسمين. ووجدت نفسي مجددا امام الشفاه والوجوه والاحذية ، واصطدمت بباب المطبخ وبالصراخ . بالرؤوس تهتز والقبضات .. اوصدوا الباب دوني بعنف وقسوة .. سيضعونه في الكفن الابيض ويقفلون عليه بالمسمار. ايها الحمقى انا لا اخشاه ، لا اريد ان ادفنه في زنزانة لكني من اكلم ؟ كانوا كلهم غرباء يحيطون بي ، واذرعهم تشد بي ، كلهم يقيدوني بايديهم وتعبت .. تعبت .. احنيت راسي وابتعدت عن باب المطبخ وانا اجرجر سلاسلي وقيودي .

– لقد ترك ابوك فتاة قوية يعتمد عليها كلنا سنموت .

كنت اود ان اصرخ بها :

– انت ميتة قبل ان تولدي انك الان لا شيء .

ولكني لفظت كلمة واحدة .

– اشكرك

واتاني صوت اخر بعيد كنت اعرفه .

– اعتبرك كابنتي الثانية .

وكنت اود ان اصرخ بها ايتها الفاجرة .

– شكرا

كنت انظر اليهم بصمت بقسوة بتحد احيانا او بشفقة . وكنت اشعر بحرارة دمعي فوق خدي وبالمخاط يملأ انفي ، الدجالون ، لقد مات بكفن او لا بدمع او لا باحترام مزيف ام لا ، بكذب او صدق ما يهم ، وانفلت بهدوء الى سطح البناية . كان القمر خبيثا اكثر مما كنت اظن ولكني همست بتحد وسخرية وانا اشرق بدمعي .

– يا قمر يا درجي نادي بابا تيجي .. اتستطيع اعادته كما كان يعود في طفولتي اذا سافر ؟

تنشقت بعمق هواء المساء الرطب وعدت لا اكاد اعي ما يقال .. ما يهمس . المطارق تدق الاف الصنوج في رأسي وبقيت تدق وتدق حتى انتصف الليل وبقيت وحيدة منهكة مع امي وصندوق خشبي يحوي جثة كانت لابي في الامس وهي للدود منذ اليوم وسيبقى الكفن الحريري .. سيبقى لينهض كل ليل ويقتلع مسمار تابوته ينقش به قصصا ويحفر على الصخر صورا تنهش تراب المقبرة وتمزقه.

يا غابتي الصغيرة سيبقى الكفن لاني لا استطيع ان امنع الناس من الموت ، يا غابتي الصغيرة سيبقى الكفن ما بقي الخوف ، يا غابتي الصغيرة سأعود في الغد لتحتضن قدماي التراب الذي يحن اليهما وستكونان قدمين عاريتين لاني سأحمل حذائي في جيبي وستروي لي اشجار الصنوبر المرتعشة ما خطه مسمار ابي .

سارة ناعورة

غجرية

يستشير الحنين بالذكريات ... ما تجن الاضلاع من حسرات
غصص كالضرام تنهش بالصدر ... وتفري بمخلب وشباة
أيقظتها يد المغيب وأذكت ... زفرات تشب ملء اللهاة
فتهب الاشواق تضرب حيرى ... بجناح الحنين والزفرات
كلما ألحف الجوى بسؤال ... رفدته العينان بالعبرات
وجرى القلب ضاربا كضرير ... في محيط الشك والشبهات
تسأل الريح عن مضارب قوم ... مزقتهم سنابك لجناة
فيرد الصدى وليس لديه ... من بيان يغني ، برجع شكاة

أين في السفح غادة هي كانت ... ملء عين الزمان كالنيرات
طلعت كالصباح في موكب الحسن ... تثير الفتون باللفتات
ولها كالضياء ألف رداء ... من شباب حلو الجنى والصفات
ثمل السفح دونها بأريج ... عبقري يموج بالنفحات
وعرا الدوح ما عرا حين جاءت ... بعجيب من محكم النغمات
يسأل الغصن طيره ويثني ... ملحفا بالحفيف والرعشات
أملاك في السفح حط ليجلو ... شبهات بمعجز الآيات
انه الفن لو يلامس صخرا ... لانثنى الصخر مترفا بالحياة

ما لتلك الفتاة تضرب طيشا ... في فجاج الشعاب والاكمات
رضيت باليسير من متع العيش ... وأغضت على الاذى بأناة
خطها العمر رحلة واغتراب ... كرياح جرت بكل فلاة
موطن الناس ما علمت غرور ... رسمته أنامل الشهوات
ولها الكون موطن بلياليه ... وشدو الاسحار بالهمسات
أخلد الناس للثرى وتراها ... نشرت في الفضاء جنح قطاة
أنفت عيشة السجين بدار ... ضرب الحرص دونه بكماة
واستطابت على الخصاصة عيشا ... لم تشنه جوائح لجناة

ليت شعري علام تضرب سعيا ... في فجاج القفار والفلوات
لا تحط الرحال الا لتسعى ... من جديد على المدى بثبات
ألحرص جرت تجد وتسعى ... أم لحلم يشب ملء اللهاة
أبدا ركبها يدور ويجرى ... في غمار المجهول والذكريات
لست تدري أعن قلى شدت الرحل ... وسارت تخوض في غمرات
أم حنين يحثها لرحيل ... كلما ألقت العصا لسباة
ولها للبعيد من كل أرض ... ظمأ القفر لارتشاف فرات

وتدور الايام في حلك الغيب ... وتمضي بحكمة وأناة
فيطل الركب المجد عن السير ... ويصحو الشباب بعد فواة
فاذا العمر ومضة من سراج ... يتلاشى وقصة لرواة
تسأل الريح عن مضارب قوم ... مزقتهم سنابك الحادثات
فيرد الصدى وليس لديه ... من بيان يغني ، برجع شكاة

دمشق ... عدنان مردم بك

عبد العزيز البشري بعد ربع قرن

بقلم محمد مصطفى البسيوني

* * *

اخترت يوم الهول يوم وداع ونعاك في عصف الرياح الناعي
من مات في فزع القيامة لم يجد قدما تشيع ، او حفاوة ساع

اجل ، من مات في فزع القيامة لم يجد قدما تشيع ، كما قال شوقي في رثاء المنفلوطي . اذ ان فقيد البيان العربي الاستاذ عبد العزيز البشري قد رحل عن الدنيا منذ ربع قرن (١) في هول القيامة ، والصحف والمجلات مشغولة بأنباء الحرب العالمية الثانية ، فلم تفسح صدرها حينئذ لتحليل ادبه ، ولم تسل انهارها بعبرات الحزن على فقده ، وكنا نظن ان الرجل العظيم سيجد انصاف معشره فيما يتلو الحرب من سلام هادىء مريح ، ولكن ربع قرن قد مضى دون ان يأخذ الكاتب الكبير بعض حقه من الدراسة ، اذ اننا لم نطالع في ترجمته وتحليله غير ما كتب عنه في سلسلة اعلام العرب بمصر ، وهي كتابة الى السرد الاخباري اقرب منها الى التشريح الفني (٢) ! فلا اقل من ان ننتهز موسم الذكرى لنسكب عليه عبرة تريح الصدور ، وتذكر القارىء بكاتبه الالمعي الذي احدث في الادب العربي اسلوبا طريفا يهز قارئه امتاعا ، ويرتفع به ابداعا ، ويهب على روحه كما يهب نسيم الروض مؤرجا بالعبير ...

ولعل قارىء مجلة « الاديب » على ذكر من مقالي السالف عن فقيد البيان السيد حسن القاياتي ، وقد المعت فيه الى كلمات قالها البشري فيه ، وكانت على قلة عددها تفصح عن روعة الوصف ، ودقة التعبير ، واحاطة التحليل ، وهي خصائص ميزت اسلوب البشري دائما في كل مقال ، وجعلته مثالا فذا للكتابة النابضة الحية ، واي مثال ؟!

ولئن كانت المعاني يدعو بعضها بعضا ، فقد وجدت نفسي مدفوعا الى الكتابة عن « البشري » بعد «القاياتي» لا لتشابه بين القمتين في الاسلوب ، ولكن لتشابه بينهما في تفرد كل منهما في بابه ، واصالته في فنه ، وعراقته في منحاه مع اتحاد مصدرهما الاول في التربية والتثقيف .

انني لا أقرأ البشري مرة الا ويتجلى امامي طيف ابن الرومي ، وصورة الجاحظ . فلقد كان ابن الرومي يرسم الصورة بشعره فتحس انك امام مصور بارع قدير ، ينقل اليك اللوحة الفنية فتكاد ترى المعاني شاخصات تتجسد ، ونماذج تتعدد .. وكأنك ازاء اطار والوان ، لا امام روي ، واوزان ...

هذا ابن الرومي ، اما الجاحظ فرب الاقصوصة والفكاهة ، والبسط والتفريع دون منازع ، وحسبك ما تعرفه عن كتاب « البخلاء » فقد جاءت اقاصيصه فيه ادبا استحال الى طرب !! ولذلك كان البشري الى الجاحظ اقرب وادنى ... ولا غرو فقد تأثر الرجل بسلفه اشد التأثر ، وكأن روح الجاحظ قد هامت طيلة هذه القرون حتى اطمأنت اخيرا في البشري ، جسدا يتحرك ، وعقلا يفكر ، وقلما يعبر ، فيا لتناسخ الارواح !.

ولسنا بهذا ندعي للرجل جديدا ، ولسنا نحكي عنه ما لم يعرفه هو عن نفسه ، فقد كان البشري قديرا في تحليل نفسه ، كما كان قديرا في تحليل الناس ، وقد سبقنا الى ايضاح وجوه المشابهة بينه وبين الجاحظ في حديث له مع صاحب « المعرفة » عن الادباء الذين تأثر بهم فذكر على رأس هؤلاء الادباء الجاحظ ، وعنه يقول :

« اقدر الجاحظ ، واستطيع أن أؤكد لك بأني اتأثره ، وارتضي صحبته ، وافاخر بها ، واحرص عليها. لقد عرفته منذ امد بعيد ، عرفته من الساعة التي ادركت فيها اثرا للقراءة القائمة على الدرس والتحقيق » .

ثم يركز البشري على الجانب الفكاهي عند الجاحظ ، وهو ما يفسر لنا غلبة التبكيت الواضح ، والتهكم اللاذع على كتابة البشري ــ فيقول :

« ان الجانب الفكاهي ليصور لنا مبلغ قدرة الرجل ــ الجاحظ ــ الفائقة على التهكم كلما اراد ان يسخر ، وكلما شاء ان تخز نقداته في القلوب » .

وقد كان كاتبنا الكبير يسمى الجاحظ احيانا بالامام في بعض حديثه عنه بمقدمة « المرآة » وفي المرآة طابع الجاحظ ومنحاه لا يكاد يختلف فيهما اثنان .

وليس من شك في ان هذا كله يشير الى ان مؤلفات الجاحظ كانت ذات مكان بارز في ثقافة البشري ، فلا جرم انه قرأ كتاب « الحيوان » واعجب به اعجابا شديدا ، كما ذكر عن نفسه كما انه اعجب ايضا بكتاب « البخلاء » وان لاحظ عليه احيانا انه قد اسرف في وصف بخلائه اسرافا شديدا .

وقارىء البشري والجاحظ معا يحس جانب التأثر والتأثير احساسا متجسدا يرى بالعين ، ويلمس باليد كما سبق ان ألمعت الى ذلك فانت اذا قرأت كلام الجاحظ عن الكندي او احمد بن عبد الوهاب ثم قرأت بعد ذلك حديث البشري عن احمد زيور ، ومحجوب ثابت تأكدت ان روحا واحدة كانت على ضفاف دجلة في العصر العباسي اخذت تراوح ضفاف النيل في العصر الحديث ! واذا كان الجاحظ قد اضحك الثكلى بما حكاه عن الكندي ، فمن الذي لا يطرب لما حكاه عبد العزيز عن محجوب اذ يقول عنه « في المرآة » :

« لا شك في ان الدكتور محجوب ثابت يعد بحق

في ميراثنا القومي ، ولو — لا اذن الله — جرى عليه القدر ، لكان لا بد للامة من (دكتور محجوب ثابت) بأي طريقة من الطرق . نعم هو في ميراثنا القومي ، لا يقل عن آثار سقارة ، وجامع السلطان حسن . ومقابر الخلفاء ، أصبح على الزمان جزءا من تقاليدنا الاهلية ، كحفلة المحمل ، ووفاء النيل ، وركبة الرؤية ، وشم النسيم . ولما فكر المرحوم محمود بك رشاد ، في جعل العلم المصري محلى بصور بعض الاثار القديمة ، فرعونية واسلامية ، لم ير المصور بدا من أن يرسم بجانب الهرم ، وابي الهول ، وجامع برقوق ، وحضرة سيدي ابي السعود ، صورة الدكتور محجوب ثابت !!! والدكتور محجوب ثابت في المصريين ، كانجلترا في الامم ، كل منهما يرى عليه للاخرين تبعات لا تنقضي على وجه الايام ! » . هذا بعض ما قال عن محجوب .

اما حافظ ابراهيم فمع تمكنه من نفس صديقه البشري بحيث كانا كنديمي جذيمة حقبة من الدهر لا يكادان يفترقان في صباح ومساء (٣)، ومع هذه المودة العريقة فقد احس شاعر النيل من نار عبد العزيز ما احس احمد بن عبد الوهاب من نار الجاحظ حين تعرض الى تصوير هيكله الجسمي فقال البشري في سخرية وامتاع :

« حافظ ابراهيم شاعر .. فهو يحب الجمال ، ويجتمع له ، ويكره القبح ، وينعي على اهله . يجابه بذلك مجابهة ، لا يتقي في القول ولا يتحرف . وما طلع عليه فتى دميم الخلق غير مستوى معارف الوجه ، الا قال له : يا فتى ! ليس الوزر عليك بل على ابيك لانه لم يؤد مهرا ... واذا اطردت نظرية حافظ ، فلا شك ان المرحوم والده تزوج على الطريقة الافرنجية فلم يدفع مهرا ، بل هو الذي اخذ « الدوطة » !! هو جهم الصوت، جهم الخلق ، جهم الجسم ، كأنما قد من صخرة في فلاة موحشة ، ثم فكر في اخر ساعة في ان يكون انسانا، فكان ... والسلام . اما ما يدعي فمه ، فكأنما شق بعد الخلق شقا ! واما عيناه .. فكأنما دقتا بمسمارين دقا ، واما لون بشرته — والعياذ بالله ! — فكأنما عهد به الى « نقاش » مبتدىء ... قد تشابهت عليه الاصباغ والالوان .. فذاب اصفرها في اخضرها في ابيضها في بنفسجيها .. فخرج مزجا من هذا كله ، لا يرتبط من واحد بسبب ، ولا يتصل بنسب ... وانك لو نضوت عنه ثيابه ، وألبسته دراعة من دونها سراويل ، وافرغت عليه من فوقها جبة صافية ، وتوجته بعمامة عظيمة متخالفة الطيات ، لخلته من فورك دهقانا من دهاقين الفرس الاقدمين ، فاذا جردته كله ، واطلقته في البر .. حسبته فيلا ، او ارسلته في البحر ... ظننته درفيلا .. !! »

واذا قال هذا عن حافظ فما ظنك بما حكاه عن حسن غندر ، وفكري اباظة ، ونافع باشا ، والشيخ ابي الفضل ! لك ان تقرأ البشري في ذلك كله لترى انك تنادي الجاحظ من مكان قريب .

ومن الواضح ان كتب الجاحظ لم تكن هي كل ثقافة البشري ، غير انها أنست لديه طابع الدعابة والسخرية، وموهبة المرح والفكاهة ، فصادفت فيه مكمن الخصوبة الحية فاينعت ... كما صادف منها المنهل العذب فتمثل بعد ارتواء .. !!

واذا كان الجاحظ شيخ البشري في القديم ، فان محمد المويلحي رحمه الله هو شيخ البشري في الحديث .. اذ كانت صحيفته الذائعة « مصباح الشرق » اثيرة لدى البشري الناشىء يجري في انهارها فيض من كلمات المويلحي التهكمية الساخرة حين يصبها في قالب من البلاغة والجزالة ، ويضعها في اطار من الاشراق والاناقة .

ولقد قال البشري عن « مصباح الشرق » انه امست مصباحا يهتدي المتأدبون بسناه اذا ارسلوا القول، او الموا بنظم الكلام ..

وللبشري ترجمة مستفيضة للمويلحي بالجزء الاول من « المختار » ألم فيها الى بعض ما نقول ، فذكر فضل استاذيته عليه بما لا يحتاج الى تعليق .. ولو لم يشر عبد العزيز الى تأثره بالمويلحي فيما ساقه من ترجمته بالمختار لما سكت ناقدو الادب المعاصر عن تسجيل ذلك . فان الصور الاجتماعية البارعة في حديث عيسى بن هشام قد انتقل صداها القوي الى صور « المختار » و « المرآة » . ولسنا نقول ان الاسلوبين يتقاربان تقاربا دائما ، فهذا ما لا يوحي به سجع المويلحي وترسل البشري ، ولكننا نقول ان الصور الاجتماعية لدى المويلحي قد ظهرت في ثوب اخر لدى عبد العزيز مع اتحاد المصدر المؤثر ، ولك ان تقرأ في حديث عيسى بن هشام غرائب المحكمة الشرعية ، وافانين رجال الادارة ، وغرائب اولاد الذوات ، ثم اقرأ ما خاض فيه قلم البشري عن ذلك ، لتعلم ان الاستاذ قد وجه التلميذ الى طريق تتعدد صوره ، وتتفرج زواياه عن كل نادر غريب !! .

ولئن غلبت الثقافة الادبية على كاتبنا الكبير فقد تأثر ايضا بالثقافة الدينية ، وذلك طبيعي لمن نشأ في بيت عريق عرف بالعلم والدين ، اذ كان ابوه الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الازهر الاسبق ، واستاذ المالكية في عصره ، وله في حوادث جيله سوابق ذائعة دونها التاريخ !!

وقد كان من اتساق الامور ان يلم البشري في صباه بمبادىء القراءة والكتابة في « الكتاب » على نحو

---

(١) انتقل الى رحمة الله في مارس سنة ١٩٤٣ . (٢) لاستاذنا الكبير أحمد شفيع السيد رحمه الله ترجمة تحليلية موجزة للبشري ، تضم نثارا من شعره معللة شارحة . (٣) اشارة الى قول الشاعر

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

غمغمة

قد تفترس الغيلان أحبائي
أو يغرقهم اعصار الليل
قد أنسى بعض الاسماء
وأحن الى وجه ناء
ويطوف الـذل
في ساحة داري ، أو أسمع
شيطانا في غسق الظلمه
يستنزف أعراق النغمه
أو ألمح بوما في الجدران
فأذوب حيـاء
وأغمغم في ألم : « اسراب جراد »
وأظل أرى الانسان
انسان الثأر
انسان العصر

يا أبطالا في درب الفجر
الشمس تناهبها الحيتان
والزرع تعيث به الفئران
ودموع الحزن تقرح جفن النسر
والبرد تغلغل في عظم الاطفال
عبر الاسمال .
يا آمال الاجيال
قد طال مسيركم بين الكثبان
والاودية السوداء
والانفاق المتعرجة الصماء
فالجرح عميق
الجرح عميق

قنيطرة ــ سورية
رضوان عقل

ما كان يفعل لداته حينذاك ، ثم يحفظ القرآن الكريـم ، ولقد اوشك ان ينتظم في مدرسة ابتدائية مدنية بعـد ذلك ، ولكن اباه ــ شيخ الاسلام ــ أبـى الا ان يدخل الازهر وان يدرس علوم الدين ، فكان ما اراد . . .

ولا نريد ان نقيس الثقافـة بالتحصيل المدرسي فحسب ، فان للثقافة منابع اخرى تتمثل فيمـا يحيط بالمرء من ظروف ، وما يتفاعل به من احداث . . اذ لا شك ان ثقافة البشري التي عبرت عن نفسها في مقالات تكتب، واحاديث تذاع ، لها اصول اجتماعية ، وسياسية مـن طبيعة جيله المعاصر ، فقد ادرك الرجل منـذ حداثتـه احداثا سياسية ، وتقاليد اجتماعية ، ونهضة ادبيـة ، ولعل من اهمها انشاء الحزب الوطني سنة ١٩٠٦ بزعامة خطيبه المفوه المجلجل مصطفى كامل ، ثم اشتعال الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ وما وليها مـن قيام الثورة المصرية سنة ١٩١٩ بزعامة سعـد زغلول ، ممـا اعقب ضجة ادبية حافلة رنت بها المنابر خطابة ، وسالت بهـا الصحف كتابة ، وغردت بها الاقدام شعرا رنان القوافي صادح الابيات ، وذلك كله بعض ما شارك فيـه البشري بدءا وختاما . . .

ولا ننكر مع هذا كلـه طبيعة المجتمـع المصري ، وعاداته ، وتقاليده المختلفة ، مما ساعد البشري علـى اتقان الصور ، وابتكار الموضوعات ، فكان قلمـه البارع كالعدسة الدقيقة التي لا تسجل ما يرى وحده بل تضيف اليه من التحليل والتعليل ما يجعل الصورة فوارة الدم ، قوية الحركة ، تجيش بالحياة .

والى جانب هذه الثقافة العربيـة ذات الروافـد الاسلامية ، والادبية والاجتماعية ، كان البشري علـى بعض الحظ من الثقافة الغربية ، وهي وان كانت قليلـة الكم ، الا انها عميقة الكيف ، وهذا ما عبـر عنه الدكتور طه حسين في مقدمته للجزء الثاني من « المختار » حيث قال عن البشري « انه قد ألم بحظ المترفين الذين عرفوا الحضارة الغربيـة ، وذاقوها وتمثلوها ، واستمـع لاحاديثهم ، وشاركهم في هذه الاحاديث ، فأخذ من هذه الحضارة الاوروبية شيئا يسيراً خفيف الظل ، قـوي التأثير في الوقت نفسه » .

هذه خواطر تتدافع في ذكرى الكاتب الكبير بعـد ربع قرن من رحيله الفاجع ، وقد أردت بهـا ان اذكر القراء بأديب حي المشاعر ، بارع الصور ، فكـه الروح ، في عصر لا يتسع لنظيره على كثرة من بـه مـن ادعياء البيان !! ولست انا الذي اقول ذلك ، بـل انـه شاعر الاقطار العربية خليل مطران الذي افزعه الخواء الادبـي بعد رحيل عبد العزيز فقال في رثائه :

أخلا من البشري عصر لـم يكـن   فيـه على ذاك المثال اثنان ؟

الفيوم : التوفيق الثانوية
محمد مصطفى البسيوني

ايـامنـا

•

صفـــاء الحيـدري

•

بغـداد ـ العـراق



في الليل
في الدرب الطويل الى القطار ، الى المحطه
كنا نسير تدق ساعه
وتموء قطـه
ويمر مخمور يسامر وحشة الدرب الطويل
سئـم الجماعـه
ويلوح فانوس يضوضيء ثم يكبو في الوحول

كنا نسير بـلا نجوم
أو سمـاء
أو قمـر
كنا نسير بلا تخوم
أو ضيـاء
أو بصـر
وبغير دار او وطن
وبلا مدار او زمن
لم يبق في اعماقنا شيء .. تنفس او نظر
الا الصبا .. في الليل والصمت انتحر
كنا نسير بـلا مدى
لم تترك الدنيا لنا دربا ولا أبقت هدى
لا أمسنا عشناه او نرجو غدا
لم نحي ... لم نترك صدى

ونروح نفترش الحدائق والسواقي
نحيا على ما مر من ايامنا ..
وعلى الذي في الغيب باقي
وبكـل يـأس
كنا ندق كؤوسنا كأسا بكأس

ويمر حول مكاننا عسس المدينه
حزمـا بطينـه
خطواتهم تبدو رزينه
فنعدهـا
اثنـان
ثـم
ثمانـي
حتى تلاشى في السكينه
اصداؤها الخرس اللعينه

عشنا كدود ترابنا
أغلى سني شبابنا



عبد الغني العطري

خـطـرات وآراء

بقلم عبد الغني العطري

* * *

« للاديب » الاغر حقوق ولـــه علينا واجبات كثيرة . وصاحب « الاديب » ، الصديق العزيز والزميل القديم . وقف حياته من اجل خدمة الفكر ، منذ اكثر مـن ربـع قرن ، ورضي بالزهد وعيش الكفاف فـي سبيل الادب والجيل العربي الصاعد . وعلينا نحن ــ رفاقه في درب الكفاح الطويل ــ الا نتخلى عنه ، وان نشد ازره ونسهم في اداء الواجب معه . واذا مـا شغلتنا عوادي الحياة ، فلكي نستأنف معه النضال بعد حين .

وها نحن معك ايها الاخ الحبيب ، على الدرب من جديد نحمل الرسالة ونؤدي بعض الواجب . (ع.)

مثلنا الاعلى في الادب

من اخطائنا في الادب وعيوبنا البارزة فيـــه ، ان معظم كتابنا ومتأدبينا لا يتخذون لهم مثلا اعلى ، يحاولون ــ مجرد محاولة ــ محاكاته أو التفوق عليه . وقـــد لا يكون في استطاعتهم محاكاة هذا المثل او التفوق عليـه ، ولكن مجرد اتخاذ هذا المثل ، بل مجرد النظر الى كاتب او قاص او شاعر عالمي ، يرفع تفكير هـــذا الكاتب او القاص او الشاعر عن المستوى العادي ، واحيانا عـــن المستوى المبتذل الى المستوى الرفيع ، الذي يحلم بـه ، ويصبو اليه كل اديب ومتذوق للادب في بلادنا .

كثير من ادبائنا وارباب القلم عندنا لا يقرأون . واذا ما قرأوا فلكتاب عاديين ولمجرد الاطلاع والتسليـة وقتل الوقت ، في حين ان مطالعة الاديب ــ الذي يحاول ان يرقى بأدبه الى الاوج ــ والى آفاق علوية مـــن الفن والابداع ، تختلف كل الاختلاف عن هـــذا اللون من المطالعة ، ان مطالعة الاديب يجب ان تنحصر في مستوى معين من الكتاب . وحين يفعل الاديب ذلـك ، فعليه ان يقرأ ، لا قراءة فهم وتذوق فحسب ، بـل قراءة ناقـد وخبير . يجب ان يغوص في الاعماق ويسبر الاغـوار ، ويبحث عما وراء السطور . يجب ان يبحث عن الفن في الصورة ، عن الروعة في التحليل ، عن جمال التشبيه ، واخيرا لا آخرا عن كل ما في القطعة او الكتاب من معان بليغة وصور بارعة .

هكذا يجب ان يطالع الاديب ، وعلى هذا الاساس يجب ان ينتقي ما يطالع ويقرأ . امـــا القراءة العادية ، ولكتاب عاديين ، فلا ريب انها غير مجدية ، بل ربما كانت في بعض الاحيان سببا للتخلف الفني ، ووسيلة مـــن وسائل الضعف الادبي .

اذكر ان الكاتب الفرنسي الكبير « فلوبير » كـان ينصح تلميذه الروائي « موبسان » ويوجهه فيقول :

عليك حين تريد ان تكتب ان تبحث عـن الجديد . عليك ان تطيل النظر ، وتمعن التدقيق في كـل شيء ، كي تأتي بالجديد في صورك وتشابيهك .

وكان يقول له :

ــ كل شيء يمكن ان نجد فيه جديدا ، حين نبحث عن زاوية لم يرها غيرنـا مـن الكتاب . والمهم فقط ان نهتدي الى هذه الزاوية ، وان نحسن ابرازها وتصويرها.

عندما نقرأ لامثال هؤلاء الكتاب والادباء ، نكون قـد حاولنا ان نرقى بأدبنا ونسمو به ، لا ان نقف في آخـر الصف ، ونقنع بالقليل مـن الاطلاع الادبـي والمعرفـة الفكرية . والاديب الفاشل هو ذاك الذي لا يقـرأ بعمق وتذوق وفهم ، وهو ايضا ذاك الذي لا يحسن انتقـاء مطالعاته ، ولا يدقق في اختيارها .

علينا أن نبحث عن مثل اعلى لنا في الشعر والنثر والقصة ... ولا مانع ، بل من الخير كل الخير ان يكون لنا اكثر من مثل اعلى نعجب به كل الاعجاب ، ونتذوقه كل التذوق، ونحاول ما استطعنا ان نسمو بنتاجنا الفكري الى الحد ، او بعض الحد الذي بلغه مثلنا الاعلى . واذا ما فعلنا ذلك ، اذا ما آمنا بهذه الفكرة كـل الايمان ، واعتنقناها حق الاعتناق ، فقد يأتي يوم يظهر فيه مـن صفوف المؤمنين بها ، من يصح ان يكون مثـلا اعلى للاخرين ، وقدوة للكتاب والشعراء والقاصين .

لنبحث عن مثل عليا في الادب ، ولنرتفع ، او لنحاول الارتفاع بأدبنا الى المستوى العالمي ... ولنؤمن بان الطموح اول الطريق الى النجاح .

دواوين شعر ..

عدد وافر من دواوين الشعر وصلتني في الآونة الاخيرة من شعراء شبان في سورية ولبنان والعراق .

يسعدني كثيرا ان اتوجه بالشكر الخالص الى اصحاب هذه الدواوين ، على هداياهم الكريمة ، وثقتهم الغالية ، وحبهم الاكيد . واني لاعتبر هدية الفكر اثمن واغلى هدية يمكن ان تقدم الى من نثق بهم ونحبهم ونحترمهم . على ان هذا الشكر لا يمنعني بالطبع من ابداء رأي صريح في الموضوع . ولست اعني بهذا الرأي شاعرا بذاته ، ولا ديوانا بعينه ، بل هي كلمة عامة ، احب ان يقرأها كل شاعر يعنيه الامر :

من المعروف ان التنافس بين الشعراء الشبان بات على اشده . كل واحد يحاول ان يثبت وجوده بجمع عدد من القصائد يطبعها في كتاب صغير الحجم ، ناعم الورق ، انيق الغلاف ، يسميه ديوانا ، يحمل اسما معينا ، وصورة ترمز الى شيء من مضمونه . ويكون صاحبنا قد سجل بذلك عملا ادبيا جديدا ، مقلدا انداده وزملاءه من الشعراء الشبان !.

هذا هو ميدان التنافس الذي قام ولا يزال ، بين شعرائنا الشبان العرب ، وهذه هي « موضة » المواسم الاخيرة بين هؤلاء الاعزاء .

احب ان اصارح الجميع بان هذا التنافس في غير موضعه ، وان هذه « الموضة » ليست موفقة ولا مناسبة « لاجسامهم » الفضة وعقولهم الطرية ، بل ليست مناسبة لمستقبلهم ومستقبل الشعر عامة . وخير لهم والف خير ، ان يبتعدوا عن هذا الميدان ، ميدان التنافس في النشر المبكر ، وان يكتفوا بالانتاج وامعان النظر فيما نظموا وانتجوا ، وتنقيحه ، والاكتفاء بالقاء الممتاز جدا منه في ندوات عامة ، او نشره في بعض الصحف والمجلات . وبذلك يفسحون المجال لانفسهم ، لنقد انفسهم ، وعدم تسجيل النتاج الشعري العادي او الرديء في دواوين تحفظ في المكتبات ، وتبقى على الزمن شاهداً على اسفافهم وسطحيتهم احيانا !

الشاعر الكبير المرحوم خليل مردم بك رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق رفض ان يطبع ديوان شعره طوال حياته ، رغم العروض السخية التي قدمت اليه . ولم يطبع ديوانه الا بعد وفاته بشهور طويلة ، حين اصر المجمع على ضرورة طبع هذا الاثر لركن بارز من اركان الشعر في سورية والعالم العربي .

وفقيد الشعر المرحوم محمد البزم لا يجهل اثره شاعر او اديب او قارىء ذواقة في العالم العربي ، رفض هو الاخر ان يطبع ديوانه وهو حي ، بل طبع بعد وفاته .

والاخطل الصغير الاستاذ بشارة الخوري ، ظل ينظم الشعر اكثر من اربعين عاما ، ورغم هذا لم يحاول طبع شعره في ديوان الا منذ بضعة عشر عاما .

وما نقوله عن هؤلاء الفحول نقوله ايضا عن الشاعرين الكبيرين بدوي الجبل وشفيق جبري اللذين يرفضان باصرار طبع ديوانيهما . ان الشاعر الحق يأبى ان يسجل على نفسه اثرا لا يثق بجودته وروعته ، بل يحتفظ به ليمعن النظر فيه ، على ضوء تقدمه في الشعر وتمكنه من الادب .

انه ولا ريب اندفاع خاطىء ، هذا الذي نراه بين شعرائنا الشبان ، وتنافس غير محمود ، سيدفعون ثمنه في المستقبل من مكانتهم . ولو اعادوا النظر بعد سنة او سنوات فيما طبعوا اليوم ، لندموا اشد الندم .

اني لاكره الحصرم المتزبب ، وبعض هؤلاء الشعراء ما يزالون حصرما ، ولكنهم يحسبون انهم نضجوا وصاروا عنبا ثم زبيبا !.. والمستقبل وحده ، والنقاد المنصفون وجدهم كفيلون باحقاق الحق ووضع الامور في موازينها .

الادب اللااخلاقي

الادب الاخلاقي في خطر .

الادب الرفيع الفاضل يهدده الابتذال والاباحية واللااخلاقية .

ان دعاة هذا اللون الجديد من الادب ، لم يعد يرضيهم الغزل العاطفي ، ولا تصوير الحب وخلجاته ، ولا تغليف الرغبات والتعبير عنها بكلمات ناعمة والفاظ رقيقة .. انهم يحرصون على التعبير عن رغبات الجنس بكلمات مكشوفة ، ويصرون على سرد الحوادث اللااخلاقية واصطناعها .

لم اللف والدوران ، ولم يحاول الكتاب والادباء البعد عن الواقع ؟. ان الواقع جنس ، فلماذا لا نجابه الحقيقة بصراحة . ولماذا لا نصورها بجراة وواقعية ؟

بمثل هذا المنطق يحاول دعاة اللااخلاقية في الادب ان يبرروا دعوتهم . وبمثل هذه الحجج يحاولون الدفاع عن رأيهم ودعوتهم . لنتصور ان احد الكتاب السوريين اصدر قبل حين رواية من الادب اللااخلاقي ، وفيه يصف امراة مبتذلة فيقول : (لقد سمحت « الاديب » لنفسها بحذف العبارة لفضاحة التعبير فيها) . بمثل هذه الصراحة يحاول اللااخلاقيون ان يصفوا هذه المراة .. ان الكاتب لم يلجأ الى الالفاظ المنمقة ، ولا الى الكلمات الرقيقة المزخرفة .. لقد افقد الصورة كل جمالها ، وكل روعتها حين ابى ان يضفي عليها شيئا من الظلال ... شيئا من زخرف الكلام ، وشيئا من الوصف الرقيق البارع .

ان القاريء ليصدم بمثل هذه الالفاظ والتعابير ـ وما ذكرت اهونها وأيسرها ـ وتعود به الذاكرة الى

تونس الخضراء

تلقى الشاعر رسالة من احد اصدقائه الادباء يقول فيها « الى الذي أنسته تونس الخضراء اخوانه في الكويت » . فكانت هذه القصيدة :

لم تنسني تونس الخضراء اخواني ... ولم تزدني سوى شوق لخلاني
ولم تزدني سوى حب الى وطن ... أصفيته الود ـ ألوانا ـ واصفاني
وللكويت حنين بات ملء دمي ... لولا وجودي في الخضرا لاضناني
فتونس المجد مضياف ومؤنسه ... تحيي الاديب وتجزيه باحسان
فيها الطبيعة قد غنت مزاهرها ... فاطربت بغناها كل فنان
فيها من الخلق المحمود امثلة ... يرنو لامثالها ـ حقا ـ ذوو الشأن
والروح تسبح في أجوائها طربا ... كأنها بعثت في عالم ثان
وتونس بهجة الدنيا وزينتها ... آمنت بالحسن فيها خير ايمان
فيها الحضارة قد شعت مآثرها ... سما بها الفكر من عرب ورومان
وتلك آثارهم في الرحب قد شمخت ... يسبح الفن فيها منذ أزمان
وشعب قرطاج فالايام قد شهدت ... له بعز وأمجاد وسلطان
وللعروبة فيها كل مفخرة ... من العلوم وآداب وعمران
فلابن سرح دوي في مدائنها ... وقد غدا ذكره في كل ميدان
وعقبة الفتح خفاق اللواء بها ... اذ كان فيها مثال المصلح الباني
وأغلب في جبين الدهر لؤلؤة ... بالقيروان لهم رايات عرفان
وتلك مهدية الامجاد شاهدة ... للفاطميين من أبناء عدنان
قد شيدوا دولة شماء سامقة ... بها تغنت دمشق بعد بغدان
وأهل تونس أهلي سوف أذكرهم ... مدى الحياة باشواق وتحنان
هم الكرام اذا ما الحر جاءهم و ... بر الاطايب من روح وريحان
هم الرجال اذا ناداهم وطن ... عند المصاعب او في رد عدوان
سلوا فرنسا فقد ردت ودائعهم ... لا بالكلام ولكن بالدم القان
دماء حشاد والاحرار اخوته ... قد خضبت ترب بنزرت وزغوان
ولست فيهم غريبا بل هنا وطني ... وفي رحابهم الريان سلواني
فان يكن في الكويت الحر لي سكن ... فلي بتونس احبابي واخواني

تونس — فاضل خلف

ادب القرون الخالية ، سواء منه الادب العربي في عصر العباسيين والمماليك ، او الادب الاجنبي في بعض مراحل حياته . واذا كنا قد حمدنا الله على خلاص الادب في القرن العشرين من الاباحية واللااخلاقية فانه ليعز على كل قاريء ومفكر ، ان يحاول اللااخلاقيون في اوروبا واتباع مدرستهم العودة بنا الى الوراء ... الى اللااخلاقية التي طوينا صفحتها ، وبقيت في بطون الكتب ذكرى اليمة ، وتاريخا من الادب لا يشرف الخلق ، ولا ينسجم مع حاضرنا ، ولا يتلاءم مع مستقبلنا الثقافي والفكري الذي نرنو اليه .

يخطيء كثير من شبابنا ومتأدبينا وادبائنا ، حين يحاولون احياء الادب اللااخلاقي ، تحت اسم الوجودية ، متأثرين بمدرسة سارتر او ساغان ... ويخطيء اكثر واكثر اولئك الذين يتأثرون بهذه « الموضة » لا عن فهم ووعي ، ولا عن ادراك ، بل تمشيا مع الجديد دون مناقشة البيئة التي نعيشها ، او مراعاة المجتمع الذي نحيا فيه .

ان تيار الادب اللااخلاقي سينهزم ويزول ، كما انهزم ايام العباسيين وبعد عصر الانحطاط ، وكما انهزم في فرنسا بعد القرن التاسع عشر ، ليحل محله الادب الواقعي الفاضل ، الذي يصور خلجات النفس ، وخفقات الفؤاد ، بأسلوب رفيع ، وكلمات منتقاة ، والفاظ ناعمة مسكرة .

دمشق — عبد الغنى العطري

الرحمة ودموع السماء

بقلم مصطفى درويش الدباغ

***

رايتي وانا راقد على سريري انعم بالدفء والحرارة في ليلة ماطرة ، هربت انجمها في مدار السماء ، وتتعارك فيها الحياة على الارض والسماء . رعد يصك بصريره وضراوته الاسماع . وبرق يخلب بنوره الابصار ، ورياح عاتية عاصفة ، تدمدم مزمجرة تلتطم بالاشجار ، فتثير الرعب والفزع في القلوب الآمنة المطمئنة ، وينبث من كل هذا صوت ماء ميزاب السطح ، ينساب هادرا على سطح مفرش البلاط ، يدب التريث فيه ، يخفف اثر صوته الناعم من حدة الاصوات المرعبة المنطلقة ، من اثر عراك الطبيعة الفاضبة القلقة ، ويخالط النفس من اثر وقعه أمن وعافية ، ويتدفق من حلاوة وقعه وموسيقى انسجامه ورتيب ايقاعه ، صفاء ونقاء ، فكأنه كمان ينفخ الانغام المطربة ، ينفحها بعفوية وتلقائية كلما شاءت السماء ان تتصل بالارض ، مرسلة خيوط غيمها ماء رذاذا صافيا ، يعلم الانسان حلاوة الصفاء والتآخي والغيرية ، والتبشير بالخير . فكأن عراك الطبيعة واصداءها المتهجمة الفاضبة ، لم يكن الا عراكا ظاهريا ظاهره العذاب، وباطنه الرحمة، يحمل في ثناياضراوته واصطكاك مظاهره ، نذر الخير يصبها بسخاء واريحية منبجسة من عين السماء ، كما ينبجس الينبوع بالماء الزلال الصافي من خلال الصخرة الشماء الدكناء ، يتدفق بالبشر والطراوة وتطرد فيه الحياة متوثبة متحركة مستديمة ، تتألق في امتداد لسانه ، فيشيع الجمال فتستريح النفس وتهدأ ومن ثم تتحرك لهفتها تبغي الاندماج في ثناياه ، لتصبح قطرة وذرة من ذريراته .

أقول رأيت نفسي في ظل هذا العراك المبشر بالخير ، انساق وراء صور جميلة من صور الحياة ، وتتعاقب امثال هذه الصور على الانسان وهو هادىء يتملى الجمال والصفاء ، ولكن فيلم الحياة يمده وهو في حالات الغضب والسأم بالصورة العابسة ، اذ لا يثير الغضب الا الغضب ، ولا يثير الصفاء الا الصفاء ، وكثير من الناس يروحون عن انفسهم ويرفهونها باستجلاب مظاهر البهجة ، اذا ما ارهقها الكدر ونفذ السأم الى كل خلية من خلاياها خشية ان يجلب الغضب والكدر صورا منغصة اخرى، تزيد من حدة اعصابهم وكدرهم وغضبهم، فتدب الحياة في انفسهم وتشرق بالبهجة والصفاء .

ولا شك ان هذه الصور المبهجة تأتلف مع حالة نفسي وانا غارق في فراشي يعب جسمي الدفء والحرارة ، وتفرق حواسي اصداء الطبيعة ترسل شآبيب الخير والرحمة فتعبه الارض بحنان وعطف موصولا بالشكر . وما اجمل العراك نلتمس من نبضه املا وبشرا وخيرا ، وما أبدع الجمال نستمده من باطن النفس كما نستمده من مظاهر الطبيعة .

رايتني وانا منطلق في رحاب هذه الاجواء انطلق بدون وعي مني على صهوة احلامي ، فاذا بصورة الشاعر - ابو تمام - يتلفع عباءته ويعتمر بعمامته يمشي وئيدا، تنبعث رائحة الشراب من فيه ، وتتوقد عيناه ، وتنثران نورا ولهبا .. ثم يقف لحظة يتأمل ويلمس لحيته ، ينشد الدفء في تمليسها ، ولطالما كانت اللحى ، مبعث حرارة يستمده أصحابها من شريان شعراتها ومن ثم اخذ ينشد :

يا سهم .. للبرق الذي استطارا   بات على رغم الدجى نهارا
حتى اذا ما انجد الابصارا   وبلا جهارا ، او ندى سرارا
آض لنا ماء ... وكان نارا   ارضى الثرى .. واسخط الفبارا

وكأنه لم يكتف بهذه الابيات الثلاثة اذ شاهدته وهو يضع أصابع راحته اليمنى على مقدمة جبهته . ويهزها هزا ، كما يفعل جاني البلح حين يهز نخلته لتساقط عليه بلحها ، لعل جبهته تساقط عليه ، شعرا رائعا وما لبث حتى سمعته يهمس بهذين البيتين ، فكأنهما نفحة من نفحات الغمام قال :

سارية ، لم تكتحل بغمض   كدراء ، ذات هطلان محض
تمضي ، وتبقى نعما لا تمضي   قضت بها السماء ، حق الارض!

ومن ثم انسرح خياله ، واختفى بعيدا في طيات احلامي .. واطل علي خيال شاعر حبيب الى نفسي . لاقى اذى وعنتا في حياته من معاصريه الادباء ، فلقد كان بعضهم يلاحقه بزراية شعره والاستخفاف به بلا سبب ، سوى ما ينبض في قلوبهم من الحسد والغيرة ، وقد لاحقه حسدهم بعد مماته ، بيد ان روحه المتدفقة في شعره .. روحه المتحررة الانسانية ، ما زالت تنساب في ارواح المتأدبين بأدبه ، والمتلمذين على دواوينه . ويا طالما وجدت كثيرا من الغبطة والسرور والمتعة واللذة والثقافة والروح الانسانية ، التي تتدفق في صدق لهجته ، ونحن جلوس في حضرته اثناء زيارتي له في ادارة مجلة « ابولو » ينتظم حوله اصدقاؤنا من الشعراء والادباء ، مثل الدكتور مختار الوكيل ، والاساتذة صالح جودة ، وحسن كامل الصيرفي وغيرهم من الشعراء الذين لا اتذكرهم الان لقد كان رحمه الله ، يسح بالادب والثقافة والشعر والتاريخ والفن ، كما تسح الغيمة الماطرة يجلو لك كل هذا ، بأسلوب جميل محبب تسيطر عليه روحه المتصوفة المتأملة العميقة ، الا وهو استاذنا الدكتور احمد زكي ابو شادي . بدت لي صورة وجهه كما عهدتها تشرق بالابتسامة المشوبة بالالم ، تغطيها تلك

عرفتك

برغم الجفا .. بيننا والصدود
بلا موعد .. ها هنا نلتقي !!
عرفتك من همسات الطيور
ومن نغمة الحور والزنبق !!
عرفتك من قبلة أومأت
لثغري .. على الخد والمفرق !!
عرفتك من لفتة حلوة
الي .. ومن خطوك المرهق !!
فلا تسرعي الخطو عني ولا
تشيحي بوجهك .. أو تحنقي !!
جرحت بتلك الخطى كبريائي
واخجلتني .. دون ان تنطقي !!
فيا لك من طفلة .. قلبها
بنار الهوى بعد لم يحرق !!
تصدين عني .. ؟؟ لا .. لن اكون
ثقيلا .. على قلبك .. المغلق !!
تخافين مني .. ؟؟ وأنا زهرة
بغير الشذا هي لم تعبق !!
حنانيك .. ان كنت ممن يغار
ويخشى على الشرف الاحمق !!
فاني انا نجمة من شموخ
لغير المرؤات .. لم تشرق !!
وأن كنت حانقة .. أنني
اباء لغيري .. لم يخلق !!

جدة ـ السعودية — مقبل العيسى

السمرة المحببة التي تلون اديم وجهه ، بدت وهو ذاهل حالم فيما تغدقه الطبيعة من غيث مدرار ، يتأمل ماءه المتساقط فتزدهيه لآلئه المتناثرة ، تسكبه على الارض مملوءا باللهفة والحنين ، يصوب عقلا نافذا فيما احاط به من مظاهر الطبيعة ، فيتفاعل مع نفسه الشاعرة فتجتلي الحكمة الفنية من وصفه ، تطفر بالاحساس والفن صدر عن تجربته الخاصة ، وما لبث حتى أنشد واصفا السماء الشاعرة :

كان دموعها ، وصدى جواها — صدى الفانين ـ من بين الانام
وكم غول .. ينوح بها طريدا — من الارض الفنية باللئام
وقد هجر الملائكة الحيارى — منازلها ـ وغابوا في الظلام
فباتت : مثل هذي الارض يأسا — وأعلن يأسها ـ فزع الغمام
وسحت السن بالشعر فيها — فصاحا بالدموع وبالغرام

ثم توقف قليلا عن الكلام ، وما لبث حتى غرق في حلم لمسته من انطباق جفنيه . فكأنه كان يخشى على احلامه ومشاعره من الهروب ، فأوصد عليها الباب واحكم رتاجه . وما عتم حتى رفع ستار عينيه ، بعد ان استحال حلمه شعرا وأنشد متأملا :

فيا غمام اطل .. سحا على زمن — الحسن والنور، بعض من خواطره
انت الحري.. بسكب الدمع في شجن — فقد صحبت قديما غرس ساحره

وقد ايقظني من حلمي ، واستئناسي بهذه المتع الفنية صوت نقرات على زجاج النافذة وقعتها حبات البرد ، عابثة ضاحكة ، صحوت انكر عبثها متأملا في حكمة الحياة ، اذ تبعث بالشيء البسيط الصغير ، ليلاشي احلامنا وامانينا ويفقدنا متعة لذيذة ، نراها في تدفق احساسنا شيئا كبيرا ..

عمان ـ الاردن — مصطفى درويش الدباغ

رباعيات خلفية

احمد تسوكي

الرباط ـ المغرب

لا أملك الرؤية في العينين
لا أملك الكلمة في الشفتين
فكيف أفهم المراد من كيونتي
في عالم أبيعه لقاء درهمين ؟

الساعة الليلية الصموت
تنبئنا بأننا نموت
حين نقول اننا نحيا
نقضم هذا الورق الاصفر كالعنكبوت .

في هذه الدنيا نموت لا أحد
يدركنا الى متاهة الغد
يغيثنا حين يحفر الحفار
فراشنا السفلي في قعر الابد .

استيقظي أيتها الرؤى التي تموت
في داخل التابوت
فالناس موتى في الحياه
ينتظرون الله أن يمطر الياقوت .

تركني والدي وراء الجدار
أعيش او انهار
أدركني الوهن في أول الطريق
لانني حي وميت وعار بلا ازار .

قتلت كل الاصدقاء
في ليلة ظلماء
لانهم كانوا ينافقون ، يكذبون
ويتكلمون وحدهم كالصحف الصفراء .

سيرجع المسيح من أول الزمان
ويضرم النيران مرة أخرى بلا دخان
يلومنا لاننا بلا رساله
نحملها ونحن أموات على الصلبان .

من يرجع الذي مضى وكان
في آخر الزمان
يقول : هذي الارض لن تقوم
الا اذا تعبنا وخسرنا الرهان .

من يطرق الابواب ، من
يتبعنا اذا ولجنا في الكفن
قل لي اذن ، من يهز القبور
ينادينا ، ويتعلق بالجلود كالزمن ؟

سنتشبث بالحياة والافكار
وسنعيش في عالم الصور نختار
أشكالنا ، ظلالنا التي
يسود في بياضها الشعراء ـ الاصفار .

دوي وأزيز يلهبان التحفز في العيون .. ويستفزان الفوهات الفولاذية .. وأصرار وعناد تتمزق معهما اجساد . .وتتطاير صرخات واشلاء .. ثم عودة من جديد الى الصمت والترقب .. واخيرا عربة صفراء كبيرة .. تحمل في جوفها اجسادا تتلاصق .. وسكوتا يطوي حزنا عميقا .. وطريق طويلة .. تستنزف من الزحام بعضه كل حين وحين .. وتمتص السكوت والحزن على مهل .. وها هي ابو حماد .. تزايلها العربةالكبيرة بعد ان اودعتها بعض حملها .. وبعد مسيرة قليلة، ينشق من طريق المعاهدة ، الطريق الزراعي **الممتد الى قريته ..**

طريق هي الاخرى طويلة .. على امتدادها يترامى الصمت والوحشة .. وكلمات حلوة قالوها يوم وداعه .. وانعقدت فوق رأسه مع سحب التراب الذي **اهاجته اقدامهم .. ثم تساقطت على الارض لما خلفها ..** تترقب رجوعه كي يوقظها بقدميه الضخمتين .. ويحملها اليهم بغير ترابها .. براقة لامعة .. ليته لا يمشي هذا الطريق ثانية .. كيف يمر بالكلمات ولا ينحني فوقها ويلتقطها .. ليصحبها معه في عودته وقد البسها القصد والمعنى..

ــ عطوة .. هذه سكة بلدكم .. قف يا دفعة ..

وتوقفت العربة بغتة ، فاهتزت الاجساد في جوفها ، **وارتطمت** ببعضها .. وامتدت اذرع كثيرة تساعد عطوة على الوثوب من مؤخرة العربة .. وتلوح له مودعة .. وارتفعت يد عطوة تلوح للاذرع الملوحة له .. **والعربة الصفراء** الكبيرة تخطفها بعيدا عنه .. ثم نزلت يده الملوحة تساعد اليد الاخرى في شد سترته الكاكي الى اسفل ..

وحين انحدر على الطريق الزراعي .. عاد السكون يطن في رأسه ويئز .. واعماقه يغلي فيها الصمت ويفور .. وكانت الشمس من فوقه رغم تخطيها النصف الاول من النهار لاسعة .. تكوي الامل في نسمة منعشة ..

ــ سوف تعود والنصر ملك يمينك .. ويومها سنفرش طريقك فرحة وزينة .. ونقيم لك ليلة ولا الف ليلة ..

ــ ولا تنس ان تحضر لامك منديلين رأس **ومثلهما لكل بنت من** بنات القرية .. **حلاوة النصر** والسلامة ..

ونظر الى يديه فاذا هما مدلتان الى جانبيه .. فارغتان .. لا شيء يحمله اليهم .. بل يحمل الكثير ..

قرية وأم

بقلم اسماعيل علي اسماعيل

في قلبه .. هل يفتح لهم قلبه ؟.. هل يمكنهم ان يروا فيه شيئا ؟.. هل يصدقونه لو اضلتهم الظلمة عن رؤية ما بداخله فراح يصفه لهم مستبدلا البصر بالسمع ؟ انهم لم يروا شيئا ولن يروا مثلما رأى .. هل يرضيهم ما سوف يحكيه لهم ؟. وماذا عنده يحكيه ؟.. تحفز وترقب .. ودوي مفاجيء .. وازيز مباغت .. واصرار وعناد ازاء **تحالف عدائي** مسعور .. ثم عربة صفراء كبيرة تلفظه على مشارف الطريق المفضي الى قريته .. فماذا صنع في جوف هذه الدوامة العاتية ؟.. هل تصدقه امه لو قال لها انه لم يترك مدفعه الا بعد ان افرغ كل طلقاته في قلب تجمع اعدائه ؟.. **صحيح هو لم ير** احدا يسقط صريع طلقاته .. لكن ما ذنبه والموجة كانت اعتى من عاصفة مجنونة مدمرة .. حجبت عنه الرؤية .. وخنقت بالنار والدخان انطلاقه وتقدمه ..

الذين ذهبوا الى بور سعيد ايام العدوان الثلاثي من القرى المجاورة .. عادوا بحكاية وحكاية .. وانا أرجع اليك اليوم يا امي باكثر من حكاياتهم .. بصور بطولية وان طمسها ضباب الوحشية .. ودخان الغدر .. والتحالف المسعور .. عساها تخفف من مآقيك الدمعة التي ودعتني بها .. فان لم تكفك يا امي .. فاذكري انك منعتني من السفر الى بور سعيد يوم البطولات التي لم يقو على طمسها .. هدير القنابل .. ودمدمة **المدافع ..** وسيل النار الحارقة .. قلت لك يومها .. اتطوع في الحرس الوطني واذهب مع الذاهبين من القرى المجاورة .. فتشبثت بي دموعك تمنعني .. وصرخت نهنهتك في وجهي .. اني ما زلت دون الثانية عشرة .. واني الباقي لك بعد ان مات ابي ..

كيف مات ابي يا امي ؟.. اعرف انه كان يعمل في معسكرات الجيش الانجليزي في التل الكبير .. فهل قتلوه ؟.. انت قلت انه لم يتعد الخامسة والثلاثين من عمره لحظة موته ففي اي صورة مات ؟..

ــ مات ابوك مثلما يموت كل الناس .. هنا على فراشه .. فلا تسمع ما يقال عن موته .. كلام الناس كثير .. اذهب يا ولدي ولا تشغل بالك **بهذا الموضوع وانت** ذاهب الى الميدان ولتعد بالنصر ان شاء الله ..

انا عائد اليك يا امي .. وان كنت لم آتيك بالنصر فلسوف آتيك به المرة القادمة .. المعركة لم تنته بعد

قصة

.. قال الضابط الشاب لنا ذلك ونحن نصدقه .. هل تصدقين اني رفضت الاجازة التي منحها الضابط لي خجلا من ان القاك بغير نصر .. وخوفا من الا تكوني واهل القرية على علم بانها نكسة .. ستنقلب الى نصر يدحر العدو ويرده الى وكره .. ثم قبلتها لما اقنعني بانها فترة صمت سيعود بعدها الدوي الهائل .. هل تعرفين ما معنى توقف اطلاق النار .. والمراقبين الدوليين .. والجمعية العمومية .. هل تكفل الشيخ بيومي بافهامكم هذا .. ام تراكم تنتظرونني حتى آتيكم باليقين ..

وحين لاحت قريته راقدة وسط الحقول على مدى البصر .. كان لا يزال يمشي في خطوه الوئيد على الطريق الزراعي .. لا يثير غبارا ولا صوتا .. وعيناه تائهتان في افق لا تحده سوى صور غير مرئية .. تطفو من اعماق بعيدة وقريبة .. والطنين في اذنيه يواكب الصور التي تتدافع امام عينيه .

*

كانت الشمس ما تزال تقف على البعد من المغيب ، وان بدأت تفتت في الافق القريب منها صفرة رائقة ، عندما بلغ عطوة مدخل القرية .. وفوجىء عطوة بالشيخ بيومي يعبر مسقى قريبا من الطريق الزراعي ، ويهرول نحوه وهو يناديه ، ويغمغم بصوت غير مسموع .. وتوقف يستقبله وبسمة تتعثر فوق شفتيه .. ولم يكد الشيخ بيومي يصله حتى احتواه بين احضانه في نهم غريب .. وقطرات من الدمع تغرق تجاعيد وجهه .. وتبلل شعيرات بيضاء نبتت حول ذقنه .

ولم يدر عطوة كيف ومتى جاءته كل هذه الاذرع .. تلفه بالحنان والشوق .. وكيف انهمرت كل هذه الكلمات .. تغسل الهم والقلق من اعماقه .. ولم يتبين ان ذراعي امه لم تظهرا بعد وسط هذه الاذرع الكثيرة .. وعيناها الحانيتان لم تحتوياه ، الا بعد ان بدأ الموكب يخطو داخل القرية ..

وسأل عطوة الشيخ بيومي :

ـ اين امي .. هل هي في الغيط ؟..

توقف الموكب ، وتصلبت نظرات السائرين فيه صوب لا شيء ، مثلما تسمرت اقدامهم في الارض .. ونزل صمت اخذ بخناقهم جميعا .. واحس عطوة باصابع ثقيلة تقبض على صدره . فالتفت برأسه الى الشيخ بيومي ، يسأله بنظراته القلقة سر هذا الصمت المفاجىء ورفع الشيخ بيومي ذراعه ولوح بها في الفضاء كأنه يذب الصمت عن الرؤوس .. وقال في تلعثم لم يستطع التحكم فيه :

ـ نعم .. نعم انها هناك .. لكن سلنا اولا عما فعلناه في غيابك .. تصور انك لم تكن وحدك الذي يحارب .. واننا كنا نحارب مثلك .. وحياة سيدي الغمري هذا صحيح ..

لان الجمود في العيون ، فاسترخت الاهداب ، واستراحت الاقدام من تصلبها .. فمضت تعاود المسير .. وفي بطء تحرك الموكب يتصاعد من وسطه صوت الشيخ بيومي .. يتماوج بين هدوء وانفعال .. وعلو وخفوت .. كأنغام لحن جنائزي .. وعطوة يمشي وسط الموكب مشدودا الى حكاية الشيخ بيومي ، وقد نسي امه ، واستدار الى داخله يطارد اسئلة انبعثت تبحث وسط الدهشة عن اليقين .. ان تأتي طائرة اسرائيلية تطاردها مقاتلة مصرية .. صحيح .. وان تسقط المقاتلة المصرية الطائرة الاسرائيلية .. صحيح ايضا .. لكن هل حقا سقطت فوق هذه القرية ؟.. ولماذا هذه القرية بالذات ؟.. وهل صحيح ان الطيار الاسرائيلي قفز بمظلته وسط الجرن .. وحين التف به اهل القرية فتح عليهم نيران مدفعه ؟.. الغادر المتوحش .. حتى الآمنون العزل .. لكنه جبان .. ارعبه التصميم البادي في عيونهم على الفتك به لاقتحامه حرمة ارضهم بغير حق .. هل تراه اصاب احدا منهم ؟..

ونظر عطوة الى الشيخ بيومي مقاطعا :

ـ لكن هل اصاب الغادر احدا بمدفعه ؟..

قفز التلعثم يمسك بشفتي الشيخ بيومي ويوقف انسياب الكلمات من بينهما .. ووثب التعثر يعترض طريق الموكب ، وينثر امام الاقدام مزيدا من البطء .. وعاود الصمت على الفور انزال غلالاته فوق الرؤوس .. وصرخ الخوف من بين شفتي عطوة .. وذراعه تمتد لتهز كتف الشيخ بيومي :

ـ ما لك .. هل اصاب الغادر احدا ؟..

اجاب الشيخ بصوت فيه بقية من تلعثم :

ـ اصابات خفيفة .. انما المهم ما عملناه معه .. ساعتها ارتمينا خلف كوم التبن لنحتمي من طلقات مدفعه التي راح ينثرها في جنون حوله .. ولما كف عن اطلاق النار انقض عليه الولد يوسف .. واذ بالغادر يفاجئه بضربة فوق رأسه بمؤخرة مدفعه فطار صوابنا وجرينا اليه .. ومع انه باغتنا بطلقات جديدة كان يبقيها في المدفع الا اننا انتصرنا عليه في النهاية ومزقنا جسده .. الحقيقة اننا لم نكن نريد قتله .. كنا نريد ان نحتفظ به اسيرا او رهينة لكن غدره ووحشيته دفعانا لما فعلناه به .. اتعرف ماذا فعلت امك ؟..

وتردد الشيخ ثوان ، ثم استطرد في حكايته وهو يتحاشى النظر الى عطوة ، وقد كان منذ بدأ الحكاية مديرا له رأسه لا يكاد ينظر الا اليه:

ـ هجمت عليه تريد انتزاع كبده وهي تقول لا بد ان افتت كبده مثلما فتت كبدي .. كانت تظن انك مت

في المعركة وارادت ان تثأر لـك .. المهم اننا لما منعناها مـن ذلك قالت لي انت يا شيخ بيومي الذي تعرف الكتابة .. سآتيك بقطعة حديد من طائرة اليهودي التي سقطت هناك.. وتكتب عليها بدمه .. قتلناه يـا ولدي .. وتجعلها شاهـدا لقبري اذا مت ..

اطبق الشيخ فمه لحظة اطبـق عطوة اصابعه فـي تشنج حـول ساعده .. وتفرس عطوة في ذعر ، وجه الشيخ الـذي كسته مسحة حزن .. ثم دار بعينيه فيمن حوله، واذا به يرى مـن فـوق الرؤوس المحيطة به انه تجاوز القرية .. وان الموكب صار غير بعيد من المقابر ..

وصرخ في رعب وجزع :

ـ كيف دخلنا القرية وخرجنـا منها .. لماذا جئتم بي الـى هنا .. اين امي ؟..

وجاءه صوت الشيخ بيومي غائما بالاسى :

ـ البقية في حياتك يا ابني ..

*

مضى الموكب تجاه المقابر فـي خشوع وصمت .. والشمس قرب المغيب تطل على السائرين فيه وقد ازدادت اصفـرارا وشحوبـا .. والوانا عديدة تتقاطر منها كدمـوع ثكلى تسح بغيـر حساب . ووسط المقابر توقف الموكب امام قبر حديث البناء .. يعلوه شاهد مـن حديد محترق كتب على واجهته بدم اميل الى السواد .. قتلناه يا ولدي ..

ولبث عطوة واقفا امام قبر امه.. يحدق في الشاهد فـي جمـود وسكون .. ومن حوله اهل قريتـه .. يحتوون القبـر بعيونهم فـي خشوع كأنهم في مسجد يصلون .

وفجأة انتفض عطوة ، وقبض في عنف على كتف الشيخ بيومي ، وصاح في صوت ينذر بالبكاء :

ـ كيف ماتت امي ؟..

وسارع الشيـخ يجيب فـي اضطراب :

ـ مثلما يموت كل الناس يـا ولدي ..

ولانت قبضة عطـوة عندمـا انهمرت دموعه تغرق وجهه .. واخذ يردد من خلال نشيجه :

ـ حتى انت يا الشيخ بيومي ..

قال الشيخ وهو يربت فوق ظهر عطوة ، وقد بدا هو الآخر انه يحاول جاهدا ان يكبت دموعا تتوثب فـي عينيه :

ـ يا عطوة يا ابني .. امك ماتت بيننا جميعا .. واذا كنت سترجع الى الميدان ثانية فهي لم تكن تنتظرك وحدها .. كلنا كنا فـي انتظارك ندعي لك ولرفاقك بالنصر .. ونحن مازلنا نعيش وسوف ننتظر رجوعك المرة القادمة منصورا ان شاء الله .. هيا يا ولدي نرجع الـى القرية لتستريح من المشوار ..

وهم الشيخ بيومي يسحب عطوة من ذراعه ليبـدا الموكب مسيرة العودة .. واذ بـه يتملص منـه ، ويندفع في خطـو متعجل ، يتجاوز الجمع المتلاصق قربه ، وفي عينيه يتفجر بريق غامض يكاد يمسح منهما آثار الدموع .. وهال اهـل القرية اندفاع عطـوة المفاجيء ، فانطلقت اصواتهم وراءه .. مـن دهشـة واستغراب تسأل وتنادي :

ـ الى اين يا عطوة ؟.. انتظر فنحن راجعون معك ..

وخفت اقدامهم في اثره .. واذ رأوه يزايل المقابر .. ويتجه مسرعا ناحية الطريق الزراعي الصاعد الى طريق المعاهدة .. اوسعوا الخطـى يرومون اللحاق به ، واصواتهم مـا تزال تسبقهم اليه صائحة :

ـ قف يا عطوة .. الن تعود معنا الى القرية ؟..

واستمر عطوة مندفعا في خطوه المحموم .. لا يأبه للاصوات التـي تهيب به أن يتوقف ويعـود .. ولا الاقدام التي تلهث خلفه .. وبعـد مسافة غير قصيرة كف اهل القرية عن ملاحقته كارهين .. بعـد ان وضح لهم ان خطاهم لا تسعفهم في ادراكه .. ولبثوا واقفين في مكانهم الذي بلغوه من الطريق .. يتابعونه بأبصار يغشاها حزن وأسى .. حتى غاب في البعد .

القاهرة   اسماعيل علي اسماعيل

صـلاة

كانت السماء تمطر بغزارة والاخبار مـن بلادنا حزينـة تبعث علـى البكـاء ..

تبكي السماء عليك يا اوطاني   تبكي بمـزن هاطـل هتان
فاضت عيون في السماء كأنها   تبكي معي فالدمع قد اعماني
يبكي كلانا فـي دموع حـرة   ظلم الحياة وقسوة الانسان
ضاقت بلاد الله وهي فسيحة   بالقوم من اهلي ومـن خلاني
يرمونهم بالمحرقـات وليتهـم   لاذوا بصدري من لظى النيران
اطيافهم طـول النهار تحفني   والليل يسدل فوقهـا اجفاني
يا ليت قلبـي واسـع يؤويهم   ويقيهم من صولة الطغيـان
أعطيهم مـن نور عيني زادهم   واروح امسح جرحهم بحنان
يا ويح نفسي والتمني زادها   يـا ويح قلب اللاجيء الولهان
يا نسمة للعدل هبي نحونـا   وتنزلي يـا رحمـة الرحمن

لندن   فؤاد جبور حداد

من « العروة الوثقى »



يوسف عبدالمسيح ثروة

مسرح ثورنتن ولدر

بقلم يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

ثورنتن ولدر (١٨٩٧ -) كاتب مسرحي امريكي ، ولد في ماديسن بولاية وسكنسن ، عرف اول ما عرف - في عالم القصة - برائعته « سان لويس ري » وبعد ان ابلى بلاء حسنا - في هذا العالم - انتقل الى رحاب المسرح ، فلم يقل بلاؤه في هذا الرحاب الفسيح ، عما فعله واجاد في عالم القصة . فدبجت لنا يراعته « بلدتنا » و « نجونا بجلدنا » و « الخاطبة » و « صوت النفير » من طرائف المسرح الحديث ، فكان لكل من هذه المسرحيات دويها في الاوساط الادبية والفنية على ساحلي الاطلسي ، بما عرفت به من أصالة عميقة، وروح انسانية غامرة ، وحيوية فكرية ثرة ، وجلال اسلوب متين .. وكل ذلك ببساطة محببة وسخرية مهضومة ، ورقة شفافة ..

كان ولدر عظيم الشغف بالمسرح وبكل نتاج مسرحي ، وقد انهمك في هذا الفن انهماكا شديدا ، ولا سيما في فن المسرح الاوروبي - بمختلف مذاهبه - من واقعية وطبيعية وتعبيرية - غير ان اصالته الشخصية ، دفعت به بعيدا عن تلمس وجوده المستقل في هذا الفن - بشكله الكلاسيكي التقليدي المعروف - ومصداق ذلك قوله « في نهاية العشرينات بدأت افقد السرور الذي كان يغمرني في ارتيادي للمسرح . ولم اعد اثق بالقصص التي كانت تعرض هناك » (١) هذا - الوقت الذي ازدادت فيه قناعته باهمية المسرح باعتباره اعظم الفنون جميعا - على ما ذهب اليه ..

وفي هذين القولين تناقض واضح ، فكيف يمكن ان نوفق بينهما ؟ ان ذلك ممكن فقط اذا نحن اصلنا كلامنا ، وفهمنا مدلول التناقض هذا من سياق قولنا ، فالرجل احب المسرح حبا جما ، ولكن التعقيد في التأليف المسرحي ، والتكلف المتقصد في هذا التعقيد ، جعلاه ينفر من المسرح المصطنع ويفر بجلده الى مسرحه الخاص البعيد عن كل الشوائب المتكلفة .. البسيط بساطة الحياة التي ارادها ان تكون كذلك على المسرح نفسه .. ولهذا نراه مثلا يستخدم المخرج بدلا عن المشاهد والستارة والديكور والكيان المسرحي باكمله في مسرحيته « بلدتنا » .. وهو لم يكتف بذلك ، بل ذهب ابعد من ذلك في مناجزته للوحدات الارسطية (وحدات المكان والزمان والفعل) فاذا بحياة الفرد البطل انتروبوس في « نجونا بجلدنا » تتجاوز الخمسة الاف من سني الكرة الارضية ، واذا بالزمان ينطوي بسرعة عجيبة بين الابجدية الاولى وجدول الضرب وبين اوائل القرن العشرين ، واذا بمدن الفينيقيين تتحول الى ولاية نيوجرسي ، بلمح البصر ، هذا فضلا عن وحدة الفعل الفريبة المتناثرة في اجزاء المسرحية .

ان ولدر ، باسلوبه الجديد كل الجدة ، اعترض على أدق المقاييس المسرحية ، فتمكن من ايجاد بديل عنها ، على طريقته الخاصة. هذه الطريقة التي اذهلت النقاد والنظارة على حد سواء ، بطرافتها وفجاءتها وقوتها العارمة ونكهتها الجديدة .. ولا شك في ان لكل جدة طرافة وطراوة ، والحكم الفصل - على نتاج ولدر - هو الزمن ، فاذا استطاع مقارعة الزمن كما استطاع مقارعة اذهان النقاد والنظارة والقراء ، حين بهرهم بما بهرهم به ، فسيكون الحكم في صالحه .. والا فسينهار مسرحه كما انهار المسرح الرمزي الاسطوري ، الذي فاجأ به موريس مترلنك المسرح الاوروبي في اوائل العشرين .

ومهما يكن من امر ، فضرورة عملنا - في متابعتنا للمسرح الحديث - تقتضينا ان ندرس ولدر دراسة هي اقرب شيء الى الالمام اليسير ، لا الدراسة المعمقة ، لاننا - لم نتجاوز - في كل ما المنا به الا عتبة المسرح . والاخذ باليسير هو اكثر ما نستطيع فعله ، فيما نحن فيه من حيز صغير ...

وولدر يهتم بالطبقات الاجتماعية اهتماما خاصا ، ولهذا السبب بالذات يحمل المسرح معاني طبقية ، ويعده تعبيرا اجتماعيا يتطور على وفق التطور الاجتماعي ، فهو في العهود الارستقراطية يرسم ملامح تلك العهود ويصور شكلها والمضمون التقليدي لها ، في ابهتها وبهرجتها واعتقادها المبني على اساس قيادة طبقة نبيلة لسائر ابناء الشعب ، من طريق نخبة من هذه الطبقة تتوارث السؤدد من جيل الى جيل ، ومن طريق الامتيازات والجدة والفراغ التي ترعى (ازاهير الروح) ومن ثم كان الادب والفن والمسرح جميعا ادوات تابعة امينة لمصالح الارستقراطية ، تحققها وتنفذها وتوسعها ، فكان جزاء هذه التبعية ان اصبحت الفنون الادبية كلها ضعيفة النسغ والحرافة ، ذات نكهة ولطافة ليس غير وهذا امر يصح كل الصحة في حقل المسرح خاصة . ولنا في مسرحيات كورناي وراسين كفاية من الادلة على ما نقول ..

وعلى ذلك فان الابهة والاسطورة والشعور بثبات الاشياء وتمايز البشر ، الذي وجد منذ الازل ، ويصر على الوجود الى الابد ، قسمات بارزة في وجه المسرح الكلاسي ، الذي عرف بالتزمت والتجمد ، والتمسك بالمأثورات تمسكا اقل ما يقال فيه : انه تعنت .

اما الطبقة المتوسطة التي جاءت الى السلطة في بواكير القرن التاسع عشر ، فلم تجد بدا بعد استيلائها على السلطة من ان تخضع لها المسرح ايضا .. ان افراد هذه الطبقة لم يركنوا الى مقاليد سلطانهم على هذه الارض التي ثبتها لهم التملك والامتيازات التي واكبت التملك ، بل هم طمعوا في عالم اخر ، خارج الكرة الارضية وراحوا يبنون احلامهم على ذلك العالم ، بعد ان تركز نفوذهم في عالمنا هذا .. ومن ثم فذهنيتهم القاصرة جعلت عناصر المسرح (ضحلة ومضحكة ومؤذية) وجعلت العواطف الانسانية احساسات غير ذات موضوع . ولهذا فالهم في معرفة الحياة وطبيعتها ليس البحث عن اجوبة لاسئلة غير مطروقة ، ما دام المركز المالي ثابتا قويا ، والاتفاق مع تقاليد اللياقة والاصول باديا يشير الى نفسه باصابعه العشرة .. لان الاسئلة متى ما طرحت لا بد لها ان تثير الكثير من المشاكل التي تهز الاذهان وتقلق النفوس ، وتحدث البلبلة في الارواح .. ونظارة الطبقة الوسطى لا تريد الاثارة الذهنية وقد تعودت اذهانها على الركود

والهجود .. ان هؤلاء يريدون مسرحا طيعا يعمل على ترويح نفوسهم من مشاغلهم التافهة ، وعملية الترويح المبرر الوحيد لوجود المسرح في مجتمع تتحكم فيه مخالب الطبقة المتوسطة ...

ولما كانت الميلودراما تجسيدا لقدرات مأساوية تنتهي نهايات مرة .. فمن الحتم ان تكون (موضة) العصر في عالم المسرح في عز ازدهار البرجوازية ، ذلك الازدهار الذي تحكم في كل شأن من شؤون الحياة ، بحيث بدت الحياة ولا سيما على المسرح وكأنها امشاج متقطعة لكائنات منتزعة من الحياة انتزاعا ، فالتشويه والتزويق والتهويش سمات تتمركز في الشخوص ، وخاصة في الكوميديات ، بحيث يستطيع كل فرد من النظارة ان يقول بملء فيه : ان هذا هو ذاك ولست انا .. وان يضحك تبعا لذلك ضحكا مجلجلا اجوف ، لانه استطاع ، بضمير مطمئن ان يرمي ثقل المهزلة من على كاهليه على كاهلي غيره .. وفي هذا ما فيه من ترويح لذات ضيقة الافق ، خابية البصر ، كأنها الخلد في جحوره المتلاصقة بعضها ببعض في صحراء لا اول لها ولا اخر .

مسرحية نجونا بجلدنا

ومع سيطرة القوى الاقتصادية على الانسانية ، فان هذه الاخيرة قوة جبارة ، ومارد شامخ لا يجيز لنفسه الخضوع لاي قوة اخرى مهما كانت من العنف والجبروت والاذى .. ومن هنا فان انسان ولدر ، مطلق الانسان ، سابق للعصر الجليدي والطوفان ولاحق لهما وهو لم يزل اعجوبة الارض الكبرى .. ومن ثم فايمان ولدر بقدرة الانسان على التحدي ، تحدي الصراع الرهيب ، ايمان عميق ، متأصل الجذور ، فيه حرارة تلتمع شررا حينا ، وتهمد حينا اخر ، لتستعد على الانطلاق من جذوتها في الوقت المناسب ، لتلهب الاحراش والغابات .. وهكذا فالتقطع والتركيب بين الزمن الغابر والعهد الراهن ، وتسجيل قدرة الانسان على تحدي عوادي الطبيعة ، واوضار المجتمع ومآسي الحروب وآفات الجوع ، وكوامن البراكين والزلازل ، والقلق النفسي الطويل الذي واكب الانسان منذ شعوره بوجوده على هذا الكوكب .. كل هذه الامور تتحسسها وتتلمسها في ((نجونا بجلدنا)) ومع ان هذه المسرحية دراسة غريبة لتطور الانسان ، بما فيها من طفرات وقفزات ، والتفاتات عجيبة ، ومع انها متأخرة عن مسرحيته ((بلدتنا)) فسنوليها حقها من الدراسة لاهميتها والى هذا اشار الناقد المسرحي جاسنر في كتابه ((المسرح في مفترق الطرق)) بقوله : ((كانت مسرحية برودواي اللافتة للانظار في هذه الفترة هي بلا شك ((نجونا باعجوبة)) ولكن السجل الذي وضعه ثورنتون وايلدر عن بقاء الانسان القلق وغير المستقر منذ العصر الجليدي والطوفان ، بما يشتمل عليه من ذلك النوع من التركيب بين الزمن القديم والزمن الحاضر الذي يشبه تركيبات (استيقاظ فينيجان) هذا السجل لم يحرز الا تأييدا ضئيلا في نيويورك بعد ان نجح في ارباك نظارته المجربين)) (٢) والفصل الاول ينكشف عن بيت السيد انتروبوس في اكسلسيور في نيوجرسي ، والثاني في اطلانتيك ستي ـ برودوك ، والثالث في بيت السيد انتروبوس ، بنيوجرسي ايضا ...

فمن هو السيد انتروبوس هذا ؟ وما هي قصته التي تستأثر منا بكل هذا الاهتمام ؟ ان المنادي يعلن على رؤوس الاشهاد : ان هذا الرجل هو مخترع العجلة . وهو الاختراع الذي تبع بسرعة اكتشاف القتلة. انه اذن ابو الحضارة ـ على مدى تأريخ الحضارة ـ وهو قد ظهر في هذه المدينة لكي يحملها على الانتفاض على نفسها ، لتعرف ان بين ظهرانيها من يستطيع ان يجرح المعجزات ، وان يصفع الزمن ، فاذا به ، لاول مرة قوة متراجعة ، بعد ان كان قوة مندفعة الى امام لا تصدها كل قوى الاقدار مجتمعة .. على الرغم من قول سابينا (٣) : ((اننا في وسط الحياة ، بل في وسط الموت)) . قد يتهم سيد انتروبدس ببعض التهم ولكن لا ينبغي ان يساق الانسان الى مثل تلك الاتهامات ، فكلنا بشر . اما السيدة انتروبوس ، فهي انسانة بالتسمية، لان شعرة واحدة من جلدها الخنزيري لن يتحرك اذا ما رأت عبيدها ، الخدم جميعهم موتى واذا ما امعن الانسان نظره فيها مليا فسيجد نمرة في جلد خنزير .. اما اطفال آل انتروبوس ، فيعود الى فضل وجودهم حركة الكون كله ...

وبغتة ينخلع قسم من الجدار ، فوق الباب من الجانب الايمن ، ويستمر المنادي في اسداء نصائحه الى سابينا بقوله : ((ـ نصيحتي اليك الا تبحثي عن (كيف) و (الى اين) بل تمتعي بما في انائك من مبردة (وندرجه) ـ فهذه هي فلسفتي)) . ذلك انها لا ينبغي ان تنسى ما كانوا فيه من كساد وازمة كبرى (٢) ، وكيف انهم نجوا بجلدهم ، وماذا كان سينتهيبهم مصيرهم لو تلت ذلكالكساد خضة عاصرة اخرى؟

ثم ان المؤلف لم يتفتق ذهنه عن شيء بخصوص الحياة في نيو جرسي ، فلا يعلم ـ على التحقيق ، فيما اذا كان الناس ، يعيشون حقيقة في مدينة بهذا الاسم ، ام انهم عادوا الى الكهوف ، في العهود الغابرة .. غير ان ذهن السيدة انتربوس ، لم يتورع عن الادلاء برأيها فاذا بها يقول : ((بلغت الارض من السخف حدا ، فلا عجب ان ينال الشمس شيء من البرد .)) واذا ما عرفنا الصفات المجيدة التي تتسم بها السيدة انتربوس ، تيسر لنا ان نتعمق مغزى كلماتها ، وحرافة اسلوب ولدر .. الذي يلتمع التماعة ذكية على وجه انتروبوس حين يتحدث عن ثرثرة النساء بقوله : ((ان احسن شيء في الحيوانات هو انها لا تتكلم كثيرا)) ...

ها ان الماموت والدنسور (٥) تخرج من كهوفها ، ويشتد البرد اشتدادا قظيعا فلا يكاد الناس يستطيعون رفع اقدامهم من الارض ، جدران من الجليد الحديدي تزحف ، انفاس الناس تتجمد ، والعيون تفقد الحيوية فيها لانجماد دموعها ، الرياح لا تستطيع ان تتحرك ، السكون نفسه يتجمد ، الحياة تنكمش بسرعة وتتجمد .. الانهار والبحار والمحيطات وكل قطرة من المياه تتجمد . لم يعد على الارض غير الجليد .

ومع ذلك البرد الزمهرير فان بعض السابلة يقبلون الى دار انتروبوس ، وكلهم ثقة واصرار ، ذلك أن هذه الارواح الباسلة لا تشرف بالهزيمة مهما تكن قريبة على الابواب ، لانها ـ وقد اوجعها السغب ـ تؤمل خيرا في الحياة ، وتحسب انها ستعيش الى الابد . فماذا يقول هؤلاء الضيوف الثقال : انهم يوجهون كلامهم الى انتربوس قائلين : ((انك لا تستطيع ان تتقدم خطوة واحدة الى امام .. فالناس في ازدحامهم ـ يطأون بعضهم بعضا)) ..

ويبلغ الشك في انتروبوس مبلغا مروعا بحيث يقول متوجها الى زوجته : ((بفقدان الثقة التامة اقول : ان يوم الخلاص الجديد يوشك على البزوغ . واذ كانت كلمة السر في السنة الماضية هي العمل . فكلمة السر في المستقبل هي : متعوا انفسكم)) . وهذا الشك يتركز نكرانا وتنصلا عن الوجود نفسه ، ففي حفلة مرور خمسة الاف سنة على اقتران السيدة انتروبوس ، لا تجد هذه الزوجة الطويلة العمر مفرا من ان تدلي بدلوها : ((سنحتفل في هذا الربيع بمرور خمسة الاف سنة على عقد قراننا .. ولكنني لا اعرف فيما اذا كنت انوب عن زوجي فيما اقوله ، غير انني اتحدث عن نفسي فلا اجد غير الاسف على كل لحظة مرت)) ..

وبعد ان يأخذ التجمد مأخذه ، تنفجر الينابيع التي لا حصر لها، وتهطل الامطار الهائلة ، وتنفتح ابواب السماء عن مياه لم يحلم بمثل غزارتها حتى نوح فاذا بالفيضانات تتحول بسرعة مذهلة الى محيطات تتمدد فتبتلع اليابسة قارة قارة.. ها هو الطوفان الاكبر يزحف زحف الجبابرة ليربط بين البحار والمحيطات فتتلاشى حتى الجبال الراسيات صاغرة بين فكي هذا الطوفان الوحشي المذهل .

الا ان هذه الكارثة على عظم بلواها ، لا تحول بين المتنبئة العجوز

وبين قولها وهي تحدث المندوبين الذين يرفعون رؤوسهم هازئين ساخرين: «.. ومرة اخرى سيكون فجوة ضيقة للخلاص. وستنجوحفنة من الناس . ستنجو من الدمار . الدمار التام » . واذا علمنا ان هذه المسرحية كتبت سنة ١٩٤٢ ، قبل تفجير القنبلة الذرية الاولى بثلاث سنين عرفنا معنى كلمات المتنبئة ومدى انطباقها على المأساة الانسانية التي تنتظر كلا منا ، فيما لو خرج مجانين الذرة من اقفاصهم مرة اخرى ليجربوا مرة ثانية ما جربوه في هيروشيما وناغازاكي ، وعرفنا ايضا مدى أصالة فكر ولدر ، وصحة توقعاته وتنبؤاته وقدرته على استشفاف المصير المرعب الذي يلوح به مجانين الذرة من وراء اقفاصهم من حين الى حين .. والعالم بين كفتي عفريت ؟

أفلا يصح بعد كل هذا الظلام الدامس ان يتحدث هنري بن انتروبوس عن المكان الذي وجد فيه بقوله : « انا آسف لانني اتيت الى هنا . الى هذا المكان . كنت آمل الا اكون هنا . كنت آمل الا اكون في اي مكان . » واذا كان الحال بالقياس الى الرجال هكذا فما هو بالقياس الى الفتيات ؟ ها ان سابينا الخادمة تقول : « حقا، ان الفتاة الشريفة لا تجد لها موضعا في هذا العالم » . وهي تتحدث عن نفسها الى السيد انتروبوس الذي يرد عليها قائلا : « في العالم مجال لاصناف الناس كافة » .

وتحدث المفاجأة ، وندرك الذروة من المسرحية ، فاذا بالسيد انتروبوس ، يتنصل عن زوجته ويتقرب الى خادمته ، ويحاول اقناعها بالاقتران به ، وحين يجد الجد ، وتبلغ القضية مبلغا معقولا من الواقعية الساخرة ، تتقدم سابينا الى الجمهور قائلة وانتروبوس يصك اسنانه : « .. في هذا المشهد اتحدث انا الى السيد انتروبوس ، وفي نهايته يقرر هو هجر زوجته ، والحصول على الطلاق منها في رينو ليتزوجني . وهذا هو كل شيء » .

لكن المسألة وقد تطورت هذا التطور المفاجيء تفزع انتروبوس وتحمله على القول : « .. زوجتي عنود جدا .. ولذا فليس من السهل ان اضعكل هذه المسألة امامها فان ذلكسيؤذي مشاعرها قليلا» . ولكن اي معنى لهذه المشاعر وقد اتفق الطرفان على ازالة ما بينهما من عراقيل ؟ ان الناس الاخرين ليس لهم مشاعر ، فهم يتصورون ، يتخيلون ، يظنون ان لهم مشاعر ...

وعلى هذا الوتر تضرب سابينا بحكمتها البليغة وهي تحدث السيد انتروبوس : « كل الناس في العالم سوى القليل من مثلي ومثلك اناس من قش . اصغ ، يا حبيبي ، الي ، ان في قمة العالم جمعية سرية ـ مثلك ومثلي ـ تعرف هذا . فلقد صنع العالم من اجلنا . ومهما يكن من امر ، فما الحياة ؟ اذا لم تكن سلطة ولذة . ما الحياة غير حماقة وسأم » ..

وهكذا تعطي سابينا رأيها في الحياة من غير رتوش ، انها تمثل المجتمع الامريكي ، بالمعنى الدقيق من المفهوم الفردي ، تمثيلا فيه الصدق كله والامانة كلها والاخلاص للواقع الاناني من غير مواربة ولا مخاتلة ، ولا تنصل ... الواقع القبيح ، يتبدى عاريا بكل وجوده الجثماني والى هذه التعرية قصد ولدر ، وفي سبيل هذا القصد ، طور علاقة انتروبوس بسابينا بادخاله النمرة السيدة انتروبوس الى الحلبة . لتتحول الى انسانة بمعجزة ولكي تقول : « حسنا ، بعد ان عشت معك خمسة الاف سنة ، احسب ان لي الحق ان اقول كلمة او كلمتين ، اليس كذلك ؟ » وبدلا من ان يجيبها انتروبوس يلتفت الى سابينا ويقول مستخذيا : « ماذا استطيع ان اجيب عن ذلك السؤال؟» فتجيبه سابينا : « قل لي ان الحديث سيؤذي مشاعرها .. »

اما السيد بيلي فلا يجد في كل مشاغل الحياة ما يثيره ، لان التجربة علمته ان كل ماجريات الحياة اليومية ليست الا شيئا باطلا لا جدوى فيه ، بينما الحرب نفسها لم تعلم سابينا شيئا ، بل انها انستها حتى كيف تتصرف تصرفا مهذبا ، ومن اجل هذا السبب نراها تتخلى عن كل حشمة حين توجه كلامها الى السيدة انتروبوس فتقول : « اذهبي واغسلي وجهك ، فانا اخجل منك . والان علينا ان نفكر بالرجال العائدين (من الحرب) » وتتسع صفاقة سابينا حتى تشمل هذا الجندي العائد من الجبهة ولذلك فهي تستقبله بهذه الكلمات : « لست خائفة منك . فالحرب قد انتهت . وهنري انتروبوس لم يعد مهما ، كأي عامل عاطل » . ويشعر هنري بتفاهته وبالمأزق الذي وقع فيه هو والعالم معا ، فيعزو كل تلك الكوارث الى كتب والده وما احتوته من افكار « ان هذه الافكار التي استنبطها من تلك الكتب القديمة هي التي جعلت العالم بأسره موضعا لا يستطاع العيش فيه»..

لقد ذهب العالم القديم ، تلاشى وتبخر ، فماذا عن العالم الجديد ، وكيف لنا ان نعرف انه خير من سالفه ؟ ولماذا نستمر في التظاهر بما لسنا منه وليس منا . لا شك في ان العالم ، الكرة الارضية بأسرها سيصيبها البرد الموعود به من قبل الحكماء والانبياء، البرد الفظيع الذي سيوقف دورة الحياة ، والى ان تأزف الساعة الرهيبة تلك ، لا بد من تكرار ماجريات الايام . ولا بد « من حروب وجدران جليد وزلازل » وهكذا تستمر حياتنا بليدة كابية تافهة رتيبة ، وكل شيء كما هو لا تبديل ولا تغيير ولا تجديد ، وهذا المنطق السكوني Static هو الذي يدفع مسرحية ولدر بميسمها الخاص ويحمل القارىء على الخيبة من كل تمرد او ثورة .. وعندما يشعر ولدر ان هذا المنطق هو الذي سيحول بين الجمهور والقراء وبين الامل ، مجرد الامل بسبيل ولو ضيقة للنجاة بجلودنا .. يستنجد بهنري الذي ينهض خطيبا في زملائه الذين قاسوا ما قاسوا من ويلات الحرب فيقول : « ايها الزملاء .. ماذا فعلوا من اجلنا » انهم وضعوا العراقيل امام كل خطوة من خطانا .. واحتفظوا بكل شيء في ايديهم . ومع ذلك فقد تحملتم ذلك . فمتى تستيقظون ؟.. ويستطرد : « ماذا ستخسرون . ماذا فعلوا من اجلنا . هذا حق . لا شيء . اذن مزقوا كل شيء . حطموه » ...

وينقل هنري هذه الثورة الى دار والده بعد ان لوح له بنصائحه الفريدة ويقول والنار لما تزل تتأجج في دخيلة نفسه : « اجرب ماذا ؟ انا اعيش هنا . ان اقف كالغنم في ركن الشارع بانتظار ان يتحول الضوء الاحمر الى اخضر » . ان هذا لامر لا يمكن ان يخطر على باله وقد رأى الاهوال ، وعرف ما معنى ان يكون الانسان ضحية باردة لنظام اجوف من كل شيء الا الفظاظة والاستغلال والتحكم والظلم . ها هو هنري قد تيقظ بعد طول هجود . فلا بد اذن من عالم يصنعه وسيري اباه ذلك . انه لم يعد ينتمي الى بيته ولم يعد له ما يفعله هناك ، انه فقد كل شيء : البيت والوطن ، وكل ما له صلة بالانتماء بمختلف صنوفه . ومن ثم كان يحق له ان يشعر بالفراغ وان يقول في هذا الشأن : « انني اشعر بفراغ هائل في داخلي . فراغ من يرى نفسه مكروها محصورا في كل منعطف » . وعلى ذلك فلا بد لكي يحيا مثل هذا الانسان ان يقضي على غيره ، في فوضى هذا العالم ، الفوضى التي تخلق كل مسببات الجريمة والرذيلة والانحطاط ، لا بد للانسان ان يضرب ، يقاتل ، يقتل ، حتى يستطيع ان يبقى متعلقا بخيط الحياة الواهي .

ان هذا الفراغ الذي يشعر به هنري فراغ حقيقي ، حسي ، قبل ان يكون فراغا ذهنيا ، لان المجتمع الذي يرسمه ولدر ، مجتمع

---

(١) مقدمة ثورنتن ولدر لمسرحياته (بلدتنا ، نجونا بجلدنا ، الخاطبة) . (٢) المسرح في مفترق الطرق . جون جاسنر : ترجمة سامي خشبة ، (٣) ـ احدى بطلات (نجونا بجلدنا) ، (٤) الاشارة هنا الى كارثة الكساد الكبرى التي حلت في الولايات المتحدة في اواخر الثلاثينات من هذا القرن . (٥) من الحيوانات المنقرضة الهائلة المعروفة .

عيد المعلم

حرم المعلم قبلـة ومـزار   من فيض بارئه عليه وقـار

حـرم يـؤم رحابه الابـرار   المجد كـل هامـه والغار

هو للعلوم اقام فـي محرابه   شيخ أجـل تصونـه الاقدار

حرم الخلود لانت دوما شاهد   أن المعلـم ركنك الجبـار

تفنى الدهور وليس يبرح باقيا   بيـن الجوانح ذكره أكبـار

أي ادكارات الشعوب تهزنـا   لـو لـم يجلجل للهدى اعصار

أي الهدى يحيا الانـام بنوره   لو لم يقم ولـه العلوم منار

يـا حامي الحرم المقدس رونا   أنـت المـراد ، وغيثك المدرار

فلقد زرعت الحب بين ضلوعنا   علمتنا كيف الامـور تـدار

علمتنــا أن الحيـاة رسالـة   العلم فيهـا كعبـة ومزار

حييت يـا يـوم المعلم حجة   ما أنت الا للوفـاء شعـار

شهر يتيه على الزمان بقولـه   عيـد المعلم شهـره آذار

دمشق   سلافة العامري

فارغ هو نفسه ، لانه فقد مبررات وجود الحي ، مـن يوم ان اصبـح فيه الانسان الاعتيادي ، العالم والجاهل على حد سواء ، طوع امـر آلات عمياء تعمل لاغراض غبية لا يمكن تبريرها ، مهمـا حاول علمـاء الاجتماع وعلماء النفس بجهودهم المضنية من خلق المبررات العقلانية ، التي تفتقر بدورها الى مبررات . فالمشروع الحر الذي يتشبث بـه هؤلاء العلماء ، هو نفسه ـ في اخر المطاف ،مشروع عبد لمشروع اكبر منه ، واذا حاول ان يكون (حرا) بمعنى من المعاني ، اصطدم حتمـا بارادة المشروع الاكبر ، من طريق المنافسة ، وبالتالي ، انخرط فـي الفوضى ، التي هي محصل المشاريع الحرة المتضاربة وهذا يعنـي فقدان كل السمات الانسانية وضياع العلاقات السليمة ، في علاقات سديمية ، تشوه القيم بل تمحوها ، وتركز (الانا) في الانسان المطارد تركيزا مرضيا ، حتى اذا كان ذلك الانسان هو العالم انتروبوس نفسه .. ولهذا نراه يعلل غضب ابنه تعليلا منطقيا علميا بقوله : « .. انه لم يكن ليشعر بذلك الشعور لو لم يكن في شيء يذكره بذلـك . » واذا كان الابن يتكلم على الفراغ فلا بد من وجود فراغ فـــي نفس انتروبوس، لان العمل اذا ما استطال واكتنف الحياة بأسرها فذلك يعني ان الانسان نفسه يصبح عبدا له ،ولا تعود الحياة حياة بالمعنى المالوف من الكلمة . وهكذا يفقد انتروبوس اثمن شيء فـي العالم ، الا وهـو الرغبة في الشروع من جديد في عمل ما غير العمل الروتيني الـــذي يقتل كل بادرة حية وموهبة خلاقة وقدرة فعالة .. وهـــذا الشعور بالسأم هو الذي يحمل انتروبوس على القول : « لقد فقدتها (يعني الحيوية) فانا اشعر بالتعب واحس بالمرض » ذلك انه كان والحرب في ابانها ـ وسط الدم والقذارة والحر والبرد ، في الليل والنهار ـ كان يرى الاشياء التي يقوم معوجها تكرارا ومرارا » اما الان فهـــو لا يرى شيئا ، فقد غشيته الغاشية واصيبت بصيرته بالعمى !

ها هوذا وقد علت مفرقيه وفرة مـــن الشعر الاشيب ، وخلفـه الالوف من السنين ، يريد ان يتكأ على عصا كريه تحمله وتحمل وجوده البشري ، فاين تلك العصا ؟ أيمكن ان يجد لهـا اثرا فـي هذه الدنيا العريضة وقد واكب سيرتها المديدة ، بمثل تلـــك الارادة الفولاذية والعزيمة الصلبة ؟ ان انتروبوس لا يزال يفتش اركان الدنيا وزواياهـا عن تلك العصا ، ولكن تفتيشه الدائب الذي لا يعرف الونى يحملـــه حملا على الاصطدام بهذه الصخرة وهذا النتؤ . لقد ادميت قدمـــاه وكل كاهله وناءت نفسه بما يحمل واستبقته الشرور تعبث بقطعـــان البشر نهشا وتقطيعا والتهاما ، والمقادير تضحك من انتروبوس ، لانـه لا يزال يسير ويسير ولا تزال الطريق تطول وتطول . واذن فانتروبوس انسان عنود عناد المؤمن الواثق بما يؤمن به ، صامد صمود الشهيد ، وهو في ساعة محنته الاخيرة . انتروبوس يرى بباصرته الشر الـــذي اعمى بصيرته ، ولكنه رغم تلك الرؤية القاصرة ، يصر على السير قدما الى امام ، لانه الانسانية متمثلة في جبروت نفسه ، ولانه المثل الذي ينبغي ان يحتذى ، ولان قدرته على الصراع لا تهمد حينا الا لكي تثور حينا اخر . وكيف لا يكون الامر كذلك و « الحياة نفسها صراع » وهو يقول تفسيرا لهذا الصراع : « انا اعرف ان كل مـا هو خير وثمين في العالم على شفا الخطر ، ولا بد لكي نصل اليــه ، ان نكافح ، ونناضل ونصارع ـ سواء أكان ذلك في الحقل او في البيت او فـــي البلد » او في العالم . فالصراع اذن امر لا بد منه ، اذا اريد لهذه الحياة ان تكون لها نكهة او طعم .. وماذا يعني الصراع غيـــر صراع التناقضات التي تنهش المجتمع وتحطم انسجامه ، وهذا واضح فـــي المصالح المتضاربة بين الذين يملكون والذين لا يملكون ، بين الشر الذي يتحكم في عالم الشر وبين الخير الذي لا يجد له منفذا ينفذ منه الـى الضياء ليثبت وجوده والى هذا تشير سابينا بقولها : « العالم كلـه في هرج ومرج ، وانا لا ادري لم لم يسقط البيت علينا من مدة طويلة .. لا بد من وجود معجزة في الامر كله » .

وهكذا نرى ان هذا الذي تبديه سابينا هو ضمنا تعليل ولـــدر ذاته .. وعلى هذه الشاكلة يعزو ولدر بقاء العالم على حالته هـذه الى قوة عجائبية ، لانه ـ على الرغم من ايمانه العميق بالانسان وقدرته على التحدي ، لم ير مفرا وقد اخذ على يديه ان يلف هـذا التحدي برداء فضفاض هو رداء المصادفة المحض ، احتراسا منه وتجنبا من اي تلميح او تلويح بحلول قد تجر عليه ـ وهو الكاتب الناعم البال ـماهو في غنى عنه من متاعب . والحرب العالمية الثانية لا تزال تطحن ابنـاء البشر طحنا ، ولا تزال امال البشرية الخضر في يوم افضل متارجحة بين امكانية التحقيق والانجاز وبين الخيبة المرة .

بغداد   يوسف عبد المسيح ثروة

مكتبة الاديب

العباسة

مسرحية شعرية من اربعة فصول ـ تأليف عدنان مردم بك ـ ١٢٨صفحة ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطابع منشورات عويدات ببيروت

(نكبة البرامكة) في اوائل العصر العباسي في بغداد موضوع تاريخي، وحضاري كبير أهم ، ولا يزال يهم دارسي التاريخ العربي الاسلامي ، والحضارة العربية الاسلامية ، كما شغل، ولا يزال يشغل بال المتصدين لهذا التاريخ ، وتلك الحضارة بالسرد ، والتصوير ، والتحليل ، والتفسير ..

لقد كانت نكبة مأساة انزلها الخليفة العباسي العربي هارون الرشيد بوزيره جعفر البرمكي الفارسي الاصل والارومة ، وآله ، وعشيرته ، وبني قومه ، بعد ان استفحل نفوذهم الفارسي ، واصبح يتهدد الكيان العربي ، والحكم العربي عامة ..

ومن هنا القيمة التاريخية ، والحضارية ، للنكبة ، ومن هنا أيضا القيمة الشعرية ، والقصصية لها أيضا .. من حيث أنها تنطوي بالفعل على مأساة سياسية ، اجتماعية بين خليفة عربي ، ووزير فارسي في الاساس ، وتعكس بالدرجة الاولى تنافسا في النفوذ ، بل تآمرا فارسيا على دولة عربية ..

ولا عجب ان ينشط الشعر والقصص الادبي ، الروائي ، او المسرحي ، منذ وقوع النكبة الى اليوم ، لتصويرها ، او تفسيرها ، ما دام الشعر ديوان العرب ، والقصص سبيلهم الى التفسير ، ان لم يكن في غاية سياسية ، ففي غاية فنية أدبية ..

والطريف ان الوقائع التاريخية العربية ، والاسلامية القديمة ، واقصد الاخبار المروية التي تناقلها التاريخ العربي الاسلامي القديم عن هذه النكبة المأساة بين الخليفة الرشيد ، ووزيره جعفر ، تحمل من ذاتها حس الاسطورة ، والشعر ، والخيال ، وهي اليوم موضع الدراسة التحليلية ، والنقدية ، بقدر ما هي موضع الهام الادباء ، والشعراء ..

فمثلا ، العلاقة الغرامية بين جعفر البرمكي ، والعباسة أخت الرشيد مروية من مرويات التاريخ العربي الاسلامي ، رواها العديد من المؤرخين القدامى ، وهي نفسها لم تسلم من الطعن ، فقد طعن في صحتها ابن خلدون في مقدمته ، واهملها آخرون ..

فالمؤرخ محمد بن جرير الطبري ، في ((تاريخ الامم والملوك)) ، المطبعة الحسينية ، مصر ج١٠ ، ص ٨٣ ـ ٨٤ ، وابن خلكان ، في ((وفيات الاعيان)) ، ج١ ، ص ١٨٤ وما بعدها يثبتان كلاهما هذه العلاقة ، كما يذكران حرص الرشيد على مكانة العباسة في مجلسه ، ويرويان قصة نكاحها الذي عقده الرشيد من جعفر ، وجعله عاقرا دون خلوة ..

اما زواج العباسة السري من جعفر ، فيجعله بن جرير الطبري اثر معاقرة الخمر ، في حين يروي ابن خلكان انه من تدبير العباسة، وتحيلها على الماشطة .. وكلا المؤرخين يثبتان لها ولدا من جعفر ، وان الرشيد اجتمع به مرة في الحج ، فاضمر له الشر ، ثم يغفلان امر مقتلها ، ومقتل ولدها ..

في حين المؤرخ محمد دياب الاتليدي ، في ((اعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس)) ، مصر ، ص ٩٠ ، وما بعدها ، يجعل اسم العباسة ((ميمونة)) ويصف مكانتها من الرشيد ومجلسه ، وحبها لجعفر ، ونكاحها العاقر منه ، ثم تحيلها حتى واقعته ، وحملها منه اربعة اولاد ، مات احدهم ، وربي اثنان منهم في الحجاز سرا ، ثم افتضح امرها ، بينما كانت حاملا بالرابع، فقتلت ، وقتل معها ، ودفنت في مقصورتها في قصرها ..

والمؤرخ محمد دياب الاتليدي ، في : اعلام الناس .. يضيف انها قتلت بأمر الرشيد ، وحضوره ، وانها وضعت وثيابها ، وحليها في صندوق كبير في حضوره ايضا ، ودفنت في حفرة حفرت في مقصورتها في قصرها ، ثم ان الرشيد جلب جعفر الى نفس المحل حيث نصب قبة تركية ، وامر بقتله هناك ، فقتل ، ثم صلب الى الجسر ببغداد ..

هذه المرويات التاريخية ، كما نرى ، هي مع العلاقة الغرامية بين جعفر البرمكي ، والعباسة ، تسرد خبرها ، او تصورها بأشكال مختلفة .. ولكننا نجد في المقابل، ابن خلدون يطعن في هذه المرويات، ويجعلها من اوهام المؤرخين .. فقد استنكر ابن خلدون حب العباسة لجعفر ، او تحيلها لمواقعته ، وذلك لمنصبها ، وشرفها ، في حين رد نكبة البرامكة الى استبدادهم بأمور الدولة ، قال في مقدمته :

((.. ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة ، من قصة العباسة أخته ، مع جعفر بن يحي بن خالد مولاه ، وانه لكلفه بمكانهما من معاقرة الخمر اذن لهما في عقد نكاح دون الخلوة ، حرصا على اجتماعهما في مجلسه ، وان العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه ، حتى واقعها يقال في حالة سكر ، فحملت ، ووشي بذلك للرشيد ، فاستغضب . وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها ، وأبويها ، وجلالها ، وانها بنت عبد الله بن عباس ، ليس بينها ، وبينه الا اربعة رجال ، هم اشراف الدين وعظماء الملة من بعده .. وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجابهم اموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال ، فلا يصل اليه ، فغلبوه على امره ، وشاركوه في سلطانه ..)) المطبعة الخيرية ، ص٩ .

وقد اصطنع الادب العربي الحديث ، خاصة المسرحي الشعري موضوع هذه النكبة ، وموضوع المأساة الانسانية التي تنطوي عليها ، والفت الروايات ، والمسرحيات المختلفة في ذلك ، علاوة على ان السينما المصرية قدمت الموضوع على شاشة الخيالة (١) .. وفي طليعة الادباء ، والشعراء الذين اصطنعوا الموضوع جرجي زيدان ، وعزيز أباظة ، وعدنان مردم بك ، وهذه الصفحات نخصها بمسرحية ((العباسة)) ، للشاعر الكبير عدنان مردم بك التي صدرت مؤخرا ، وسنحاول فيدراستنا لها الافادة قدر المستطاع من الروايات والمسرحيات الاخرى ، او من مرويات التاريخالعربي الاسلامي القديم ، وغير ذلك .

لقد اثر عن شاعرنا الكبير عدنان مردم بك في أدبه المسرحي الشعري ، حرصه الفني ، والادبي ، في تأليفه المسرحية (٢) على العمد الواحد ، حرصه على التفنيد الفكري لموضوعه ، والتحليل الخلقي لابطاله .. وهذه خصائص فنية ادبية مسرحية ينفرد بها شاعرنا الكبير عدنان مردم بك ، حتى انه لا يجاريه فيها احد من مؤلفينا المسرحيين على العموم .. وقد استطاع بالفعل ، بهذا الحرص القيم الثمين ، ان يغني المكتبة الادبية المسرحية ، والتأليف المسرحي الشعري الحديثين بطرفة جديدة من طرفه المسرحية الشعرية ، هي العباسة ، موضوع دراستنا ..

حقا لقد اصطنع الاستاذ عدنان مردم بك الاسطورة ، والخيال في سرده ، وتحليله ، وتفسيره ايضا فيها ، ولكنه اصطنع ذلك كله الاصطناع الحكيم .. انه لم ينف العلاقة الغرامية بين جعفر البرمكي، والعباسة ، ولم يعرض عنها ، او يهملها ، كما يفعل بعض المؤرخين ، ولكنه قبلها في هيكلها العام لاذكاء العمل المسرحي واكساب الموضوع ، وفكرته قوة اكثر ، ورونقا اكثر !. ومن يدري قد تكون تلك العلاقة حقيقية . وقد تكون سببا مباشرا ، او غير مباشر في النكبة ؟!. هذه (العلاقة الغرامية) بين جعفر البرمكي ، والعباسة في المسرحية ثانوية ، ورديفة بالنسبة للموضوع الكبير ، والهام الذي يستنفد العمل المسرحي ، والتحليلات ، وهو : التآمر البرمكي الفارسي على الدولة العباسية العربية ..

وبالفعل ، ان مسرحية « العباسة » ، **للشاعر الكبير عدنان مردم بك** ، هي أدب سياسي مئة بالمئة .. وانها حقا أدب سياسي (٣) دقيق السرد ، عميق التحليل ، صادق التفنيد ، عف الطوية ، نظيف، ورهيف .. ان السياسة في مسرحية « العباسة » ، عمودها الفقري، ولولب الاحداث فيها ، ومحور التحليلات ، وهي في الاساس تكشف أطماع البرامكة الفرس التكشف السافر ، وتآمرهم التآمر السافر ايضا ، وفي ظليعتهم جعفر وزير الرشيد على الدولة العربية ..

هذه السياسة في المسرحية هي التي تدفع الى مبايعة المأمون الفارسي الام ، والى مساندة جعفر له لذلك ، وهي التي تقود الى اطلاق سراح يحي العلوي الطالبي خصم الرشيد ، وتهريبه .. وهي التي تؤلب النفوس العربية ، مثل الفضل بن ربيع وزير الرشيد ، وعينه الساهرة ، وزبيدة أم الامين ، وحفيدة ابي جعفر المنصور ، ثم البلاط ، والبطانة ، من ادباء ، وشعراء ، وعسس ، وحراس ، تؤلبها على البرامكة ، وهي التي تدفع جعفر البرمكي ان يطالب بولاية خراسان ، او على الاقل التنحي والسفر الى هناك ..

ثم أليست السياسة هي التي تدفع الاحداث الى الحل في المسرحية ، عندما يضبط رئيس الشرطة رسالة سرية من يحيى العلوي الى جعفر يحرضه فيها على الثورة ؟! ثم أليست السياسة هي التي يؤول اليها العمل المسرحي ، اذ يتأكد الرشيد من المكايد التي تحاك حوله ، فيصمم على الفتك بخصومه البرامكة خدام الاطماع الفارسية ، وينفذ تصميمه بينما يكون جعفر يستعد للهرب سرا الى خراسان !!. يضاف الى ذلك كله في المسرحية ، **تصويرها للنزعة الفارسية** الصريحة ، والاطماع الفارسية الصريحة آنئذ .. والتي ترصدها المسرحية بدقة ، وبراعة ، وأناة فتميز بين ضمائر وسرائر ، وبين ارادات وطموحات ، وتشعرنا اننا بالفعل امام شخصيات عربية ، واخرى فارسية ، تتطاحن ، وتتعارك ، ويتربص بعضها لبعض ، ويتآمر بعضها على بعض ، حتى تقع الفتكة بأعداء العروبة ..

لنستمع الى هذا الحوار الصريح الجرىء بين زبيدة ، والعباسة في الفصل الاول ، المشهد الثالث :

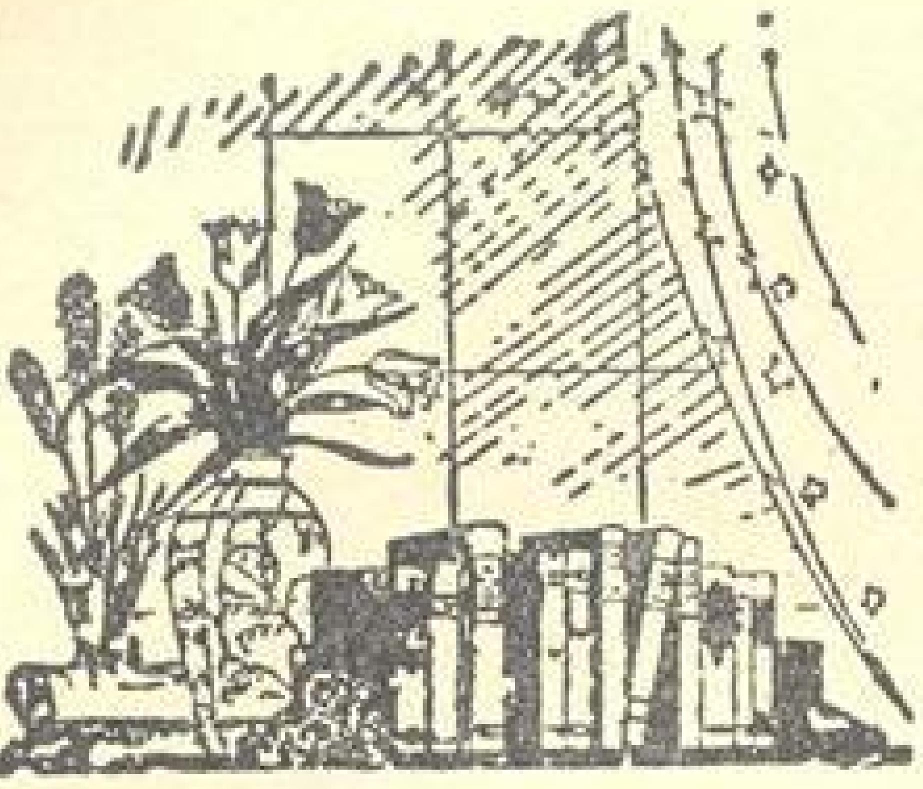
زبيدة :

أطماع فارس لم تكن ... تخفى ولا تتغير
تقويض مجد العرب ما ... تسعى اليه وتنظر
قد رابني ما رحت أشهد ... من مطامع تزخر
واقض نومي ما رأيت ... وما سمعت وأبصر

العباسة :

أني لاسمع في لغاك ... الليث حين يزمجر
وأكاد أبصر ما انطوى ... من جمرة تشعر
كره بمعتلج الاذى ... يعمى العيون ويحسر
هلا تدبرت الامور ؟. ... وفي الاناة تبصر !.
ما شان جعفر والخليفة ... في الرقاب مؤمر
من ذا اذا نطق الامام ... عليه قولا ينكر ؟.

الاديب



⊙

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ — المنزل ٢٢٥١٣٩

Tel : Dir : 223819 — Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

على الرقاب مقدر ..   أمر الامام هو القضاء

(أصوات تهزج وتهتف بحياة هاشم (تحيا هاشم) .. واخرى بحياة برمك (تحيا برمك ..) ..) زبيدة :

هل بعد هذا من دليل   تبتغين لجعفر
ورأيت شيئا ليس   يخفى أمره عن مبصر
وسمعت نامة كل عات   طامح مستنسر
انا ان غضبت فقد   غضبت لما بدا من منكر
ما حقد (فارس) بالخفي   لهيبه عن مبصر
أطماعهم يسم يمور   بجامح متسعر
عجبا ابتغين الدليل   على أذى المستأثر
ومن الفواجع شاهد   يدلي بلحن مؤثر
لم يبق من رسم الخلافة   غير رسم أعفر
أثوابنا ليست اذا   نسبت ترد لبحتر
وطقوسنا من (أزد شير)   ويزدجرد الاعور
ودعاة فارس يمرحون   بمخصب مخضوضر
والناس ساهمة النواظر   من أسى وتحير
وأراك تائهة الخطى   في جنح ليل مقفر ..

ولنستمع الى هذه المقاطع من الفصل الثاني ، المشهد الاول ، والثاني للرشيد ، والفضل بن الربيع :

الرشيد :

أطماع (فارس) مارج   في كل جارحة يثور
يتداح عن لهب تضيق   بعبء جامحه الصدور
هيهات تنعم (فارس)   بكرى وجانحها كسير
لو أمكنتها فرصة   لعتت كما صال الهصور
العجز عاق عن الاذى   لا الحلم حال ولا الضمير ..

(يدخل الفضل بن الربيع محييا الخليفة ..) الرشيد :

ماذا وراءك من خبر   وبكل زاوية خبر

الفضل :

مولاي قد كشف اللثام   وجانب القوم الحذر
ما كيد (برمك) سر   بمحجب عن ذي بصر
في كل ناحية لهم   زمر تعاضدها زمر
ودعاتهم عدد الرمال   فكيف يحصرهم نظر

(يقف قليلا ويتابع) :

مولاي ، (جعفر) أخلى   السبيل سرا (ليحيى)
سجينك اليوم حر ،   يطوي البلاد ويسعى
يورث الارض نارا   كما يشاء ، ويهوى
ودونه الفرس سيل   بالشر يجري ويطغى
سياسة الفرس بغي   في كل واد ومرعى
وهدم ما ليس يوما   يد عليه لتقوى ...

(الرشيد يهتز حنقا ويتماسك مفكرا :) الرشيد :

ما كان اطلاق (يحيى)   عفوا ولكن لمغزى ...
ترقب القوم واحذر   فالليل للويل أخفى
ولا يفوتنك مسعى   يحاك سرا ويحكى
البرمكيون كثر   في كل واد ومرعى
بالحزم يدرك امر   ما كان يوما ليجنى ...

ومن المقاطع التي عكست لونيات عربية صميمة هذا الحوار بين زبيدة والرشيد ، في الفصل الثالث : (٤) زبيدة :

يا ابن عمي جرحك الدامي   جروحي وكلومي
كل ما يشجيك يشجيني   ويذكي من همومي
بيننا من سبب القربى   ولاء من قديم
نحن من (عباس) يا مولاي   في الفرع الصميم
وهوانا واحد في   كل تدبير حكيم
لم يكن ملك بني العباس   اضغاث نؤوم ..
ملك آباء كرام   درجوا منذ القديم
وتراث عبقري   لعشيري وحميمي

الرشيد :

عرش الجدود أمانة   من دونها عذب الحمام
تقضي المروءة صون ما   شاد الجدود وما أقاموا ..
ما صان ملكا عن أذى   في غابر الا الحسام ،
نضع الامور كما المروءة   تقتضيها والذمام
نجزي العفاة بصيب   أن ضن عن سكب غمام ،
ولنا اذا ما جدت   اللأواء للشر اصطلام ..

زبيدة :

أجد الممالك بالدسائس   جمرة تتوقد ،
وبكل ربع للنميمة   عازف ومزغرد
هذا طليقك ، يا ابن   عمي لابني يتوعد
أذكى السخائم مارجا   ملء الجوانح يرعد
ومضى يحبر بهرجا   من فتنة ويردد
تلقاه يتهم بالوقيعة   في البلاد وينجد
ووراءه للسوء ألسنة   تسل ، وتغمد
ترمي فيصمي سهمها   بجوائح لا تنفد
ان الخيانة ما أخاف   من الذي يتودد
حاذر خيانة معشر   أطماعهم تتوقد
أطماع (فارس) كالزمان   على المدى تتجدد
ولنا بسيرة من مضى   عظة تقص وتنشد

الرشيد :

لا يفزعنك ما يقوم   اليوم (يحيى) من فساد
أشياعنا زحفت تكر   وراءه زحف الجراد
هيهات يحميه الفرار   ودون ذا خرط القتاد
سيف الخلافة كالقضاء   مهيمن دون العباد
كيف النجاة من القضاء   لهارب عند الطراد

زبيدة :

ما كان يحيى من تصارع   يا ابن عمي ، أو تعادي
من خلفه شيع تنادوا   للوقيعة والفساد
فجنوبهم من لاعج   لا تستقر على وساد
وجفونهم كحلت من   الاحقاد في نار السهاد
وبصدرهم حمم تزمجر   بالتهاب ، واتقاد

ولعل الحوار بين جعفر ، ومعيته ، وخدمه عند عزمه على الفرار سرا الى خراسان ، في الفصل الرابع ، المشهد الاول من اجود المقاطع التي تعكس النزعة الفارسية الصريحة ، ثم الخوف من جرائر العمل لفارس : فيروز :

مولاي ليس الفرس   بالشعب المهان او الحقير
او مكرهم عند النضال   بهين ، او باليسير
تاريخنا شرف الرجولة   ليس يخفى عن بصير
ملأت روائعه الدهور   ولم يزل شغل الدهور

جعفر :

ان الحمية في الفتى   تعزى الى نبل الشعور
لكنما الاغراق في   فرط الحمية من غرور
فشل الفتى من عشرة   الاهواء ، والرأي الفطير

جمشيد :

الركب ينتظر الاشارة   يا ابن يحيى المسير
هلا أجبت نداءهم   ومضيت للامر الكبير
من كان غيرك قائدا   في الكر ، واليوم العسير
عجل فأن الركب ينتظر   الاشارة للمسير

جعفر :

ما كان طول تريثي ... يا قوم عن خوف وذعر
أخشى على قومي البوار ... اذا فشلت وخاب أمري
لو ان (فارس) تفتدى ... بدمي ، بذلت دمي ببشر
لكن أخاف اذا فشلت ... على العشيرة عبء وزري
وأخاف سيفا للخليفة ... مصلتا كالموت يفري

(يدخل سيراس مذعورا ويخاطب جعفر :) سيراس :

(فضل) يجد وراءنا ... متطلعا مستنجدا
ما انفك يستقصي الدقائق ... دوننا مستفسرا

جعفر :

يا قوم ليس الامر بالشيء ... الصغير ولا اليسير
الامر يخفى ما يشيب ... لهوله رأس الصغير
فيروز عجل بالفرار ... لدفع خطب مستطير
ما الملك الا غرسة ... تروى بغمر من دماء
يحلو لنفسي أن أكون ... لفارس كبش الفداء
اوليس في صون العشيرة ... ما يحبب بالعطاء
ما مات من بذل الحياة ... وجاد طوعا عن سخاء ..

وبالفعل ان هذه اللونيات الصميمة شيء من التاريخ ، كما انها في الوقت نفسه شيء من فن عدنان مردم بك ، وابداعه .. انها صورة لسبر الموضوع ، وتعمقه في اتجاه تاريخي دقيق .. ونحن اذا قارنا مسرحية « العباسة » لعدنان مردم بك ، مع مسرحية « العباسة اخت الرشيد » لعزيز اباظة ، وجدنا مسرحية شاعرنا الكبير عدنان مردم بك الصق بالتاريخ ، وواقع نكبة البرامكة من المسرحية الاخرى ، كما انها تعكس بشكل اوضح وادق ، تجارب النفوس المتطاحنة آنئذ بين عمل لفارس ، وتآمر على الدولة العربية ، وبين الخوف على الكيان العربي ، والحكم العربي .. ومن الخير ان نسجل ، على سبيل المقارنة بين المسرحيتين ، هذه النقاط البارزة التي تتعلق بالموضوع ، والبناء المسرحي ، والشخصيات فيهما ..

(الموضوع) في مسرحية عدنان مردم بك مركز في صراع سياسي ينكشف شيئا فشيئا ، منذ مبايعة المأمون ، حتى ضبط رسالة الطليق يحيى العلوي يحض فيها جعفر على الثورة ، وبالتالي محاولة جعفر الهرب حيث الثوار .. في حين هو في مسرحية عزيز اباظة موزع على تصوير نفوذ جعفر ، وحياته ، وعلى الخصوص علاقته مع العباسة ، ونكد العباسة بزواجها ، ثم بولدها الذي يظهر على المسرح ، يجاء به من الحجاز ، ثم يهرب خشية الفتنة .. حتى يفاتح الرشيد جعفر بتآمره وجرائمه ، ويأمر بقتله ..

بعبارة اخرى ، الموضوع في المسرحية الاولى سياسي صرف ، يتعلق بصراع سافر ، وتنافس مفضوح على النفوذ ، والحكم ايضا ، في حين العلاقة الغرامية بين جعفر والعباسة ، وجرائرها ، رديفة .. بينما الموضوع في المسرحية الثانية عاطفي ، ثم اجتماعي ، ثم سياسي ، آثر الجانب الاسطوري ، والمرويات الاسطورية في نكبة البرامكة ، ويدور حول العلاقة الغرامية التعيسة بين جعفر والعباسة ، وما نتج عنها من اطفال ، ومكايد بسببهم ، ثم نفوذ ، وتسلط ، وتآمر ، حتى وقوع النكبة .. نعم في المسرحيتين بعض الحشو ، مثلا شفاعة العباسة ليحيى بن عبد الله العلوي الطليق في المسرحية الاولى ، تعتبر حشوا .. الا انه يغفر له شيئا ما انه سبيل الى مفاتحة الرشيد باقتطاع خراسان لجعفر ، في حين مشاهد الانس والطرب في المسرحية الثانية ، او قدوم خالد بن يحيى لتهريب ولد العباسة الذي جيء به من الحجاز ، او الاستماع الى شكوى الصناع ، يمكن الاستغناء عنها ..

لنقل اذن ، الفكرة في « العباسة » ، لعدنان مردم بك ، موحدة ، وهي تآمر البرامكة على الدولة العربية ، جعلها المؤلف في موضوع واحد ، وعمل مسرحي واحد ، هو صراع سياسي صريح ، في حين الفكرة في « العباسة اخت الرشيد » لعزيز اباظة ، تظهر موزعة ، بل عائمة بين علاقة غرامية ، وبؤس بالزواج السري ، وتآمر ، وكيد بسبب ثمرة الزواج ، ثم النفوذ ، والتسلط ، والتآمر على الحكم العربي .. وقد تأثر البناء المسرحي ، بالفعل ، بذلك كله ، فرأينا البناء المسرحي في « العباسة » لعدنان مردم بك ، سرديا سياسيا في الاساس ، بمعنى انه عرض قصصي لعمل مسرحي يتطور الى حل ، وخاتمة .. في حين البناء المسرحي في « العباسة أخت الرشيد » لعزيز اباظة ، قطاعي عاطفي ، واجتماعي ، وسياسي ، بمعنى انه مشاهد متنوعة رصف الواحد منها الى جانب الاخر ، وبعضها حشو صريح .. ولنعرض العملين المسرحيين ، كما وردا في المسرحيتين ، في خطوطهما العامة :

العمل المسرحي في مسرحية « العباسة » لعدنان مردم بك يتسلسل في الفصول الثلاثة الاولى ، الاول ، والثاني ، والثالث في قصر الرشيد ، فنسمع في الفصل الاول المشهد الاول حديثا من على الشرفة المطلة على الشارع العام ببغداد ، حيث الهرج والمرج والفرح والسرور بمبايعة المأمون بولاية العهد ، ويتكشف الحديث عن نفوذ جعفر والبرامكة ، ثم ننتقل الى الردهة حيث نقف على الهمس ضد هذا النفوذ البرمكي ، خاصة وجعفر هو الذي ايد هذه التولية ، وساندها .. وتتكشف الضغائن في الفصل الثاني أكثر فاكثر وبشكل اوضح واكثر عنفا ، والمتحاورون العباسة ، وزبيدة ، والفضل بن الربيع في الاساس ايضا ، كما نلاحظ دس الرقع والاشعار من قبل البلاط للرشيد ، يوشون بواسطتها لديه بتسلط البرامكة على الحكم ، وكيدهم .. وبينما يطلب جعفر في الفصل الثالث في حوار له مع الرشيد ، توليته خراسان ، بحجة انه سئم السياسة ، وعمل الحكومة ، يتشكك الرشيد في طويته .. ثم يقطع الرشيد في امر تآمره عندما يطلعه الفضل على رسالة بعثها الطليق يحيى العلوي يحضه بها على الثورة ، فيقرر الانتقام ، ولا تجدي شفاعة العباسة بيحيى ، ولا التماسها تلبية طلب زوجها جعفر توليته خراسان .. وهنا نصل الى الفصل الرابع والاخير ، فينتقل العمل المسرحي الى قصر جعفر ، حيث نرى جعفر ومعيته يحاولون الهرب الى خراسان ، ثم تزوره العباسة حائرة ، ولهى ، حزينة ، فتنسى حبها ، وتروح تشجعه على الهرب كي ينجو بنفسه .. الا أن الجيش يكون داهم المنزل ، كما يكون سرور طلب الى جعفر التوجه معه حيث موته ، فيلبي جعفر الطلب بشجاعة ، ورجولة ، بينما تبكيه أمه ، والعباسة ..

اما العمل المسرحي في مسرحية « العباسة اخت الرشيد » لعزيز اباظة فيتسلسل تارة في قصر العباسة ، وتارة في قصر الرشيد .. في الفصل الاول نسمع في قصر العباسة حوارا بين العباسة واختها علية بنت المهدي عن حالها التعيسة في زواجها من جعفر ، ونكاحها العاقر الذي اراده الرشيد دون خلوة ، ثم نشاهد مجلس انس وطرب يحضره الرشيد وزبيدة ، ثم يحضر جعفر ويخبر بأن في مصر ثورة لا بد من الخروج لها .. ثم نعلم بقيام ثورة في الشام يتوجه لها جعفر .. وننتقل في الفصل الثاني الى قصر الخلد حيث نسمع زبيدة والوصيفات يتحدثن عن رجوع جعفر من الشام مظفرا ، فلا تصفي زبيدة له ، بل تحمل على جعفر وسرفه ، ونفوذه ، وتدخل العباسة ولا تنسى احدى الوصيفات ان تخبرها حطا من كرامته بأنه عاد بمئات الجواري من الشام .. ثم نشاهد مجلسا للرشيد يحضره جعفر يحدث مولاه فيه عن ثورة الشام فيكرمه ويوليه المشرق .. ونعود في الفصل الثالث الى قصر العباسة حيث نشاهد العباسة محتفية بولدها الذي جيء به من الحجاز سرا ، ونسمع عن موقف زبيدة من جعفر وكرهها له ، وتربصها للفتك به ، ثم يدخل يحيى بن خالد والد جعفر يطلب الولد لتسفيره خشية الفتنة ، فيهدد جعفر بالهرب الى خراسان .. وننتقل في الفصل الرابع الى قصر الرشيد من جديد ، ونسمع عن تطاول البرامكة ، وتآمرهم ، ونرى الى مجلس للرشيد يستمع فيه

الى شكاوي الصناع ، ثم نعود الى حديث الثورات ، وان يحيى العلوي فقد ، فيستدعي الرشيد جعفر ، ويفاتحه في جرائمه واخطائه، ويرد عليه بأدب وكياسة ، وتحاول العباسة ان تشفع لزوجها فلا تجدي شفاعتها شيئا ، ويقاد جعفر بأمر الرشيد خارج المسرح حيث يقتل ، ويبرر الرشيد عمله ، بأنه للحفاظ على الخلافة ، والملك ..

الشخصيات في المسرحيتين يتباينون تباينا ظاهرا ، ومختلف بعضهم عن بعض الى حد ما ، خاصة الشخصيات الرئيسية : العباسة ، الرشيد ، جعفر ، زبيدة ، وغيرهم .. العباسة في مسرحية عدنان مردم بك زوجة عاشقة فقط ، تدافع عن سياسة زوجها ، وتحاول التوفيق بينها وبين وجهة النظر العربية التي لآلها، وذويها ، وذلك على الخصوص من زاوية الانثى الحائرة بقدرها ، وقدر زوجها .. في حين هي في مسرحية عزيز اباظة ، أم ولد من جعفر ، وشريكة لجعفر في الحياة والهم ، تتحمل من هذه الناحية فقط مقدور حظها الشقي العاثر ، والذي يصدمها بتألب القوم على زوجها، وولدها ، أو كيدهم بهما ، ومنهم زبيدة ، والرشيد ، فتحاول الدفاع عن مواقف زوجها ، او ايضا الشفاعة له ، فلا يجديها ذلك شيئا .. لنقل بعبارة اخرى ، العباسة في مسرحية عدنان مردم بك انثى عاشقة ، وحبها ظاهر في حوارها ، وافعالها ، لدرجة انه يتغلب على العصبية العربية عندها ، ولكنه حب مقرون بالهم السياسي الصريح ، في صراع سياسي صريح .. ولذلك نجدها طيلة فصول المسرحية الى جانب سياسة زوجها ، وهواه ، كما نراها عند وقوع النكبة في الخاتمة ، توافق على هرب زوجها لينجو بنفسه من غضب الخليفة ، والجيش ، والشعب ، بل وتشجعه عليه ..

في حين هي في مسرحية عزيز اباظة انثى مرزوءة بزواجها السري ، والذي تنجب منه ولدا يربى في الحجاز سرا ، وحبها حب شاق ، وشاذ ، ومهموم اجتماعيا .. فلا هي تنعم بالزوجية ، ولا بالولد ، ولا يفيدها حبها في الشفاعة لزوجها عند المحنة ، وبالفعل ولدها الذي يجلب من الحجاز ، ويظهر على المسرح ، يسفر لتوه خشية الفتنة ، وشفاعتها الفعلية ، والمباشرة لزوجها جعفر ، عند اخيها الرشيد تبوء بالفشل ..

لنلاحظ اذن ان رسم الشخصيات ، وتحليل الخلق خضعا كلاهما للموضوع ، والعمل المسرحي ، اذ ان عزيز اباظة وحده هو الذي يستغل العلاقة الغرامية بين جعفر والعباسة ، وما نجب عنها من ولد ، ليحرك بها شخوص مسرحيته ، حتى آخر مشاهدها ، في حين عدنان مردم بك يحرك شخوصه في اتجاه تاريخي ، سياسي موحد ، بعيد عن الاسطورة ، والتهويل .. وبالفعل الرشيد في مسرحية عدنان مردم بك يرسل مسرور ، والجيش ، لجلب جعفر اليه ، وقتله ، فيلبي جعفر الطلب بشجاعة ورجولة بين بكاء امه ، وزوجته ، بينما هو في مسرحية عزيز اباظة يفاتح جعفر بجرائمه واخطائه ، منها زواجه السري من العباسة ، فيرد جعفر على الاتهامات كلها ، وان العباسة حلاله وحقه ، ثم تتشفع العباسة لزوجها بحضوره ، فلا ينفع ذلك في شيء ، ويساق الغريم الى الموت ..

وفي الحقيقة ، ان الرشيد في المسرحيتين عربي حازم ، يخشى على الخلافة ، والحكم العربي ، من كيد الاعداء المتآمرين في الخفاء ، وزبيدة في المسرحيتين عربية تكيد لجعفر ، وتعمل ضده ، وتشنع عليه ، وجعفر فيهما أيضا متباه ، ولنقل الى حد كبير متآمر .. ولكن الذي يميز مسرحية عدنان مردم بك عن مسرحية عزيز اباظة ، ان مؤلفها يحرك عملها المسرحي ، وشخوصها ضمن امكانات موضوع واحد ، هو صراع سياسي صريح ، بينما عزيز اباظة يحرك عمله المسرحي ، وشخوصه في اكثر من موضوع ، وعلى الخصوص في اتجاه الاستعراض القطاعي الاجتماعي ..

الفنية المسرحية في مسرحية عدنان مردم بك تمتاز ، أذن ، بوحدة العمل المسرحي ، ووحدة الموضوع ، وبالتالي وضوح الشخصيات في الصراع السياسي الذي يعيشونه ، في حين هي عند عزيز اباظة فنية السرد القطاعي ، المزدوج ، المتناوب .. لنقل بعبارة اخرى ، ان المسرحية الاولى تقرب فنيتها من فنية الادب الكلاسي الفرنسي (٥) الذي يمثله كورنيل ، وراسين ، في ايثارهما العمل الواحد ، وتحليل الخلق ، الواجب مثلا ، الحب .. في حين المسرحية الثانية تقرب فنيتها من الفنية المسرحية الشكسبيرية ، نسبة لشكسبير ، او الشوقية ، نسبة لاحمد شوقي ، وتقوم على السرد الواسع ، والعرض القطاعي المتناوب ..

ولذلك نحن نحيي صديقنا الشاعر الكبير عدنان مردم بك على ابداعه ، وفنه في هذه المسرحية القوية ، والآسرة حقا ، والذي استطاع فعلا ان يحرك فيها شخصيات عربية وفارسية ، واضحة الملامح ، بارزة التقاسيم ، ظاهرة الاهواء في عمل مسرحي واحد ، وموضوع مسرحي واحد .. لنرى الى صراع سياسي صريح ، ونطلع على مأساة لكيد فارسي ، وتربص عربي ، ونلمس بأيدينا قيمة الواجب والشرف ، والشهامة في الحياة ، والمجتمع ، والتاريخ ..

وما اجمل خاتمة العباسة لعدنان مردم بك ، حيث نجد الاميرة الانثى ، العاشقة ، تتهاوى امام محاذير الخطر ، فتشجع زوجها على الهرب ، بل على تهريبها معه ، فلا يجدى تشجيعها شيئا ، ويقع جعفر في قبض الجيش ، ويظل يحافظ على رباطة جأشه ، وشهامته ، ليتقدم ، اخيرا ، برجولة الى مصيره ، الى موته ..

وما اجمل ان نسمع اليوم ، في جزالة ، وقوة سبك (٦) ، التحليلات الفائقة ، البديعة ، لخلق امثال هذه الشخصيات التاريخية ، في تاريخنا العربي القديم : جعفر للعباسة :

أني رسمت نهايتي ... بيدي ، وكنت بها البصيرا
أنا من تكشف لي المصير ... وما تهيبت المصيرا
حاولت ادراك العسير ... وما تخوفت العسيرا
أيقظت قومي للكبير ... وكنت في سعيي كبيرا
حاولت بعث حضارة ... للفرس طاولت العصورا
لاعيد سيرة من مضى ... كسرى العظيم وازدشيرا
ونفحت في قومي الشعور ... ولم أزل أذكي الشعورا
وقبضت ناصية الامور ... وما تهيبت الامورا
حتى أكون ، اميرتي ، ... في حبك الكفء الجديرا

ان « العباسة » للشاعر الكبير عدنان مردم بك ربح ثمين ، وقيم ، للتأليف المسرحي الشعري ، العربي الحديث ، الناهض اليوم،

---

(١) ـ وذلك في فيلم « دنانير » ، وقام بالدورين الرئيسيين فيه أم كلثوم ، وعباس فارس ، والغناء فيه من الحان زكريا أحمد .. (٢) ـ أصدر عدنان مردم بك في اواخر عام ١٩٦٦ مسرحية : غادة أفاميا ، راجع دراستنا لها في « الاديب » عدد يناير ١٩٦٧ ، وله مسرحيات عدة نشر اجزاء متفرقة منها ، هي في سبيلها الان الى الطبع ، يراجع « الادب المسرحي في سورية » ، لعدنان بن ذريل ، دمشق ، ١٩٦٥ ، ص ٨٢ وما بعدها .. (٣) ـ سنرى ان المسرحية تركز الاهتمام على الاحداث التاريخية ، والتحليلات السياسية ، من مثل اطماع فارسية، مبايعة المأمون ، اطلاق العلوي ، كما تقيم الحل في العمل المسرحي على ضبط رسالة تحرض جعفر على الثورة على الرشيد .. (٤) ـ يلاحظ ان الفصل الثالث في المسرحية طويل ، وكثير المشاهد ، (٥) ـ يراجع في هذا الخصوص مقدمة عدنان مردم بك لمسرحيته « غادة أفاميا » السابقة الذكر .. .. (٦) ـ فيما يتعلق بخصائص الاسلوب والديباجة الشعرية في المسرحية ، يراجع نقدنا لمسرحية « غادة افاميا » السابق الذكر ، فان ما ذكر فيه عنها ينطبق على الخصائص في هذه المسرحية ..

والاخذ بالازدهار ، ونرجو ان تاخذ طريقها قريبا الى المسارح الفنية ، والى الجمهور الفني في سورية ، والبلاد العربية والى اللقاء في نتاج جديد ..

دمشق — **عدنان بن ذريل**

•

قاموس التربية وعلم النفس التربوي

وضع الدكتور فريد جبرائيل نجار عميد كلية التربية بالجامعة اللبنانية ـ ٢٨٦ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات الجامعة الاميركية ببيروت

القاموس هو البحر وهذه التسمية اول من اجراها في معجمات لغتنا الضادية مجد الدين الفيروز آبادي في قاموسه المحيط ثم جاء ابو الفيض الزبيدي فتداولها في شرحه للقاموس بكتابه الضخم الذي سماه « تاج العروس » ومضى المعاصرون على ان يخلعوا اسم القاموس على المعجمات الحديثة ، وبهذا سمى علامة التربية الاستاذ الكبير الدكتور فريد جبرائيل نجار معجمه في التربية وعلم نفسها . (1) .

وليس يضر كتابا نفيسا كهذا الكتاب ان يتقادم طبعه ويحدث الكلام عليه ، فان القدم لا يجري على الفكر والعلم ، وبخاصة المعاجم ، فان كلماتها ومدلولها دائمة ومتداولة ، وعملة الفكر والشعور لا تبطل في سوق العقول والنفوس .

واذ كان علم التربية والنفس وعلم الاجتماع من الامور التي ذرت اشعتها في عصرنا فهو من العلوم المحدثة ، فقد وجب ان تقترن بمعاجم تبين معاني الفاظها والوان مصطلحاتها ، وقد لبثت حياتنا العلمية والفكرية منذ استهلالة العصر العشرين في مهب ريح خاصة لا يشتمل عليها توجيه عميم ، اذ كان كل قطر من اقطار العروبة معنيا بمصطلحات يدلي بها علماؤه ، قد لا تتفق وما عند العلماء الآخرين والباحثين في امور العلوم الحديثة كالتربية وعلم النفس والاجتماع ، حتى انبهت لذلك المجامع العلمية وبخاصة المجمع العلمي العربي بدمشق الذي ظل فيه الاستاذ الرئيس الامير مصطفى الشهابي يدأب في ترويق المصطلحات العلمية والفكرية حتى أخرج بها قاموسا جليلا يشتمل على كثير من مصطلحات العلوم والفلسفة ونواحي الفكر .

فلا جرم بأن وضع معجم للتربية وعلم نفسها كان من حاجات الفكر المعاصر ، والبحث الراهن في كليات التربية والمجامع العلمية والادبية ، وكان التطور الذي تمضي به امتنا العربية يعوزه رفد من المعجمات الخاصة والعامة لتيسير البحث والدرس وللوصول الى غاية حميدة في التأليف والمحاضرة والتدريس .

وقد رتب المؤلف مفردات هذا القاموس التربوي على الطريقة الابجدية الانكليزية بدءا من حرف الالف وانتهاء بحرف الياء .

وهو يثبت الكلمة بالانكليزية وبجانبها مرادفها بالفرنسية في اكثر كلماته ، ولا يطيل الشرح والتأويل ، وهذه مزية رائعة تحبب المعاجم الى روادها ، اذ ان الاطناب في شرح معاني الكلمة والتوسع في مدلولاتها يدخل الضيم على المادة نفسها ، وعلى القاريء ، اذ يعتريه الملال ، ويضيع في مجاهل مطلوبة ، على حين يجد بمنالته ما يشاء من معاني الكلمة باختصار مفيد دون ايجاز مخل .

---

(1) شارك المؤلف في اخراج هذا الكتاب الجليل السيدة فائزة معلوف انتيبا والدكتوران نعيم نقولا عطية وماجد فخري من اساتيذ التربية بالجامعة الاميركية ببيروت باشراف الدكتور حبيب امين كوراني رئيس دائرة التربية في هذه الجامعة الذي كتب المقدمة .

وبضربنا بعض الامثال مما جاء بهذا القاموس نستبين اوجه الجدوى فيه ، كقوله في مادة الايكولوجيا : علم التوزيع البشري : Ecology human « درس انتشار الشعوب وانتظامها في جماعات على أساس ارتباطها ببيئة فيزيائية معينة واكتسابها حضارة خاصة » وبمادة Learing. Whole التعليم بالوحدات الكلية .

« طريقة تعلم وحدة كاملة بمراجعتها تكرارا من اولها الى اخرها يقابل ذلك طريقة التعلم بالجزء او التجزئة » .

وهذه الطريقة بعثت في ذاكرتي خاطرات جميلة تعليمية كنت أشاهدها حين كنت ملحقا ثقافيا للسفارة السورية بالقاهرة ، فدعاني مدير المركز التربوي لزورته بسرس الليان الذي يبعد سبعين كيلو مترا شمالي القاهرة حين اقامت مؤسسة الاونيسكو مركز التربية الاساسية هنالك ، فذهبت ازور هذا المركز في قلب الريف المصري ، وقد اقيم بين الرياض بطراز حديث ، وشد ما فرحت اذ وجدت هنالك الصديق المستشرق الكبير الاستاذ « جاك بيرغ » الذي دهشت لانطلاق كلامه بالعربية حتى حسبته مغربيا واذا هو فرنسي من ابرع المستشرقين وظلت الصداقة بيننا منذ ذلك اللقاء . وفي هذا المركز شهدت درسا « كليا » كان يلقيه أحد اساتيذ التربية المنتمي الى معهد التربية بالقاهرة والمقصود بكلمة « الكلية » القاء جملة كاملة كقولنا (قدم الطالب الى المدرسة) فبدلا من ان يأخذ المعلم بفك هذه الحروف والبدء بتلقينها الطالب مفردة فهو يدلي اليه بالجملة بكاملها ، وبتوالي الجمل يعرف الطالب مواقع الحروف وحركات تركيبها . وعندي ان هذه الطريقة لا تصلح الا للكبار ، وقد اخذت بها مدارس السودان . ورحت وانا اشاهد درسها في قرية سرس الليان أردد قولة في هذا الصدد قالها الفيلسوف بيرغسون وهي : « ابدأ بالكليات » .

والذي كنت اتمنى ان اجده في هذا القاموس تناول الامثلة من الادب الغربي والعربي ولو على شكل اضافة هامشية ، فهذا القاموس حين تكلم في الصفحة ٢٣٦ على الرمزية Symbolisme شرح معناها العلمي والوصفي دون ان يقول انها من ابتكار شارل بودلير في الشعر الحديث . ولم يتطرق الى اثرها في الشعر والفكر واقتصر على تعريفها بانها كالشعار الذي يرمز الى شكل من الاشكال .

ويبدو ان هذا القاموس اتبع مؤلفه النابغ تصنيف حروفه بالانجليزية وحبذا لو اعيد تصنيفه بالنسق العربي لمواده ، كان يبدأ بحرف الالف وينتهي بالياء ايضا حسب المسميات العربية وتوضع بجانب كل منها معانيها الانكليزية والعربية ، اذن لجاء هذا الترتيب نبذة مواتية للتأليف المعجمي العربي .

وهذا هو عين ما صنع المؤلف الفاضل في اثباته في اخر المعجم ثبتا بالكلمات الواردة في القاموس بنظام اجراه على الحروف الهجائية العربية بدءا بالالف من مادة (ائتلاف)وانتهاء بمادة (يوتوبيا) وهو يشير بجانب كل مادة الى صفحتها التي فيها المادة المعجمية في هذا القاموس الجليل .

ومن الجميل حقا ـ وهذا مذهبي فيما اتكلم به على الكتب ـ ان معرفتي بمؤلفيها تضفى على تمثلي تجسيدا يجعلني احس بوجود المشاهدة والفكر في حين واحد . وقد عرفت المؤلف الاستاذ الكبير عميد التربية الحديثة في لبنان وصلاته بالتصنيف التربوي جائمة في أفياء الفكر ، ولدى رواد العلم بالجامعة الاميركية ببيروت حتى هذا اليوم وفي الجامعة اللبنانية في عهد رئيسها الكبير الاستاذ الدكتور فؤاد افرام البستاني . والاستاذ نجار عميد كليتها التربوية التي لبست حلة هذا الاسم الجميل منذ حين بعد ان خلعت عن منكبها اسم (معهد المعلمين العالي) .

دمشق — **زكي المحاسني**

تطور الصحافة العربية في مصر

تأليف انور الجندي ـ ٤٠٠ صفحة ـ منشورات الرسالة

قدم الاستاذ انور الجندي في هذا الكتاب عدة دراسات يتصل بعضها ببعض ، فلا تكاد قضية من قضاياه تنفصل عن قضية اخرى ، حتى يعد هذا الكتاب بحق ، تكملة لكتابه عن : « الشرق في فجر اليقظة ».

على ان هذه القضايا التي أثارها المؤلف في هذه الدراسة ، لما يتسع القول حولها وتتشعب الآراء ، **فيما تتضمنه من وقائع** وحوادث واحداث ، كانت مطمورة في الصحف والدوريات الى ان كشف عنها وناقشها وغربلها الاستاذ انور الجندي ...

ولقد يكون كلامي مكرورا اذا تعرضت لامتداد ثقافة المؤلف ، او محاولاته العديدة المرضية في هذا الكتاب ، فهو ولا شك ، يغني عنها ما قدمه ويقدمه كل يوم من زاد هو خير لابناء العربية في شتى بقاع الارض .. ويكفي دليلا على نفعيته وجديته ، انه لم يسبق في تاريخ هذه الدراسات في شرقنا العربي ، ولا في الكشف عن مطويات هذه الدوريات، ولا بعث هذا التراث الذي تعيش عليه جامعة ، ويفرض نفسه على اكثر من قسم في اكثر من أكاديمية ...

ولا يهمني في هذا المجال الا ثبت هذه الدراسة ، تاركا مناقشتها للذين يهمهم هذه المناقشة ، ويهولهم منحى هذه الدراسة .. فالابحاث الجديدة التي شدت اليها ، ودفعت الى افرادها بالارقام هي :

١ ـ نماذج متعددة لتطور الاسلوب الى نهاية الفترة التي ارخ لها المؤلف .

٢ ـ تراجم عديدة للصحفيين ، ودراسة لرؤساء التحرير .

٣ ـ معارك ومساجلات الصحف .

٤ ـ قضايا الصحف ، طرائف الصحافة ، الاخطاء المطبعية ، توقيعات الصحفيين .

٥ ـ خطوط عريضة للمجتمع في مرحلتيه : قبل الحرب الاولى وبين الحربين في مجال المسرح ، والمجتمع ، والازهر ، والرحلة والفكاهة ، والاغاني .

٦ ـ مذكرات الصحفيين ، والكتاب في مجال العمل الصحفي .

٧ ـ صحافة النقد السياسي الساخر ، وصحافة الادب والثقافة .

٨ ـ الكاريكاتير والصحف الهزلية .

٩ ـ دراسة شاملة للمصاحفين (الكتاب الذين يكتبون في الصحف من غير محرريها) .

١٠ ـ دراسة دخائل الصحافة واسرارها من الداخل .

ومن الانصاف ان انضم الى الاستاذ المؤلف ، وافخر بانه « بهذا الكتاب تكون دراسات الصحافة العربية في مصر الى اوائل الحرب العالمية الثانية ، قد يسرت بجهد المقل ، وان صورة للمجتمع قد وجدت ، واصبحت قادرة على ان ترسم ملامح العصر » .

واعتقد انه يعد قراء العربية ، وبخاصة المعنيون منهم بهذه الدراسات التي سدت في حياتهم ، الف باب وباب ، **كادت لا تنغلق** في يوم من الايام ، لولا ان استعان المؤلف الفاضل ، على ايصادها ، بمختلف الادوات ، وشتى المعينات ، ولقد دفع هذا الجهد الاستاذ انور الجندي للتحدث عن « موسوعته » وهذه اول مرة ، يعرض فيها تعبه ، وما يصيبه من جراء ذلك ، وان كان هذا لا دلا ، او عجبا، وانما هو التواضع بعينه الذي يسيطر على العلماء والباحثين ، بعدما لمس اعراض الادباء عن اظهار كنه ما يديره على هذا الصعيد العربي الكبير ، وتغاضيهم عن هذا العمل المشكور :

يرسم المؤلف الخطوط المستقيمة لعمله العظيم فيقول :

« كانت الفكرة اساسا هي « القضاء على النظرة الاقليمية الضيقة » التي كانت سائدة في دراساتنا عن الادب العربي ، لذلك كان من الضروري ان يكتب الادب العربي من جديد على نحو موحد ، تدرس فيه الظواهر النفسية المختلفة التي مرت على الوطن العربي في ضوء « وحدة الفكر والضمير والشعور والذوق » . وقد كشفت دراستنا في أدب المقاومة عن هذه الحقيقة في مواجهة « النفس العربية » للاستعمار والاحتلال ، ومعارك المقاومة ، والثورات المتعددة، وكان من الضروري ان يردد هذا العمل « كاتب » لا يتطلع الى الثمرة السريعة ، ولا الجزاء المادي ، فيكتب دراسة على مستوى الامة العربية في فترة تبلغ حوالي السبعين عاما ، وهي الفترة التي واجهت فيها الغزو الاستعماري والاحتلال .

ولست اذكر مدى الجهد الذي بذلته والذي اضطرني الى اتخاذ « نظارة » طبية ، وكيف امضيت اكثر من ثلاثة اعوام مقيما اقامة تامة في مكتبة القلعة بالقاهرة بين الاضابير القديمة من الصحف والدوريات ، ولكني اذكر انني لا اعد هذا العمل شيئا كبيرا او عظيما ، وانما ـ اعده مخلصا ـ عملا تمهيديا لعمل اكبر منه ، واكثر شمولا وتحقيقا ، ومع ذلك فان عملي بالنسبة لهذه الدراسة لما ينته بعد ، فقد تولدت عشرات الموضوعات والدراسات الفرعية التي تحتاج الى مزيد من العمل ، ومع هذا الجهد الذي بذلت ، وقد طبع اغلب هذه الاجزاء على حسابي الخاص ، ومن رزق اولادي ، فان قليلين جدا، هم أولئك الذين أولوا « الموسوعة » بالنظرة الفاحصة ، والنقد البناء ، او القوا الضوء على بعض اجزائها ، ولم يكن مطمعي في هذا تطلعا الى شيء ما ، سوى الرغبة في الانتفاع بآراء الباحثين ، ووجهات النظر الاخرى التي توسع امامي آفاق البحث ..

وقد اعطتني هذه دراسة ، ما زلت اعيش في دائرتها ، اعطتني فكرة ونظرية . اما الفكرة ، فهي ان فكرنا العربي الاسلامي فكر حي متحرك ايجابي مرن متطور ، قادر على الحياة والاستمرار والنمو، والتجاوب على المستويين : الزمني والبيئي ، فهو يمتد « زمنيا » دون ان يتحطم ، ويقاوم كل مؤامرات تمزيقه او تدميره . ويتمدد « بيئيا » ، فيشمل العالمين العربي والاسلامي ، فضلا عن انه قدم الى اوروبا اعظم مقومات الفكر الاوروبي المعاصر ، وهو « المنهج التجريبي » فضلا عن عديدمن المقومات التي قامتعليها النهضة والحضارةالحديثة.

اما « النظرية » فهي اننا في حاجة الى تأكيد اساس فكري نقيم عليه نهضة فكرنا الحديث ، هذا الاساس الذي لا يمكن ان نستمده الا من جوهر فكرنا العربي الاسلامي ، وتتمثل فيه قيمه الاصيلة ومقوماته الاساسية . فقد كان فكرنا دائما مفتوحا وقادرا على الاخذ والعطاء ، وله من مقوماته ما يمكنه من الحفاظ على شخصيته وملامحه ، ولن يستطيع ابدا ان يتخلى عن هذه المقومات » .

غير اني لا استبعد مطلقا على الاستاذ انور الجندي ، ولا على قدرته في البحث والدرس والاستيعاب ، ان يكون له في يوم من الايام، مدرسة بعد ان كان له منهج ، يأخذ من على اوراقها ، التلاميذ الواعون في العالم العربي ما افاض به هذا الباحث الجليل علىالعربية من دراسات كانت احوج ما تكون اليها ، ولا سيما اذا انجز ما تعاهد عليه . وهو تكملة هذه الدراسة بكتابين : « تطور الصحافة العربية بين الحربين ١٩١٩ ـ ١٩٣٩ » ، « تطور الصحافة في العالم العربي بعد الحرب العالمية الثانية الى اليوم » وان كنت في دخيلة نفسي ، أكاد احسده ، واتمنى ان اكونه ، وبخاصة في سنه التي تقارب سني ، ولا تزيد عليها الكثير ، وهو من هو : نشاطا وحيوية ، وذهابا الى مكتبة القلعة التي يذهب اليها المعافى ، فيرجع متعبا او مكدودا ، فضلا عن الجمع والبحث والمقارنة والاستخلاص .. وفقه الله ..

القاهرة

أبو طالب زيان